فؤاد الشايب

أديب اللجمي

حين كانت مواد هذا العدد تأخذ طريقها الى المطبعة ، نعت جامعة الدول العربية ، كما نعت وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي ، ووزارة الاعلام ، واتحاد الكتاب العرب ، ونقابة الصحف ، في الجمهورية العربية السورية ، الكاتب العربي الكبير المرحوم فؤاد الشايب الذي توفاه الله في عاصمة الارجنتين ، بونس أيرس ، يوم السبت الواقع في ١١ تموز (يوليو) ١٩٧٠ .

وكان الاستاذ الشايب يدير في عاصمة الارجنتين مكتب جامعة الدول العربية ، ويعمل فيه بلا حساب للجهد والوقت .

تولى رئاسة تحرير هذه المجلة منذ صدورها سنة ١٩٦٢ . وكتب في أول مقالة افتتاحية لها :

« من حق العربي اينما كانت مساكنه اليوم ، فوق أرض هذه الأمة ، أن يتيمن باسم المعرفة وينشدها في القرب والبعد ، ومن المهد الى اللحد ، وهو أشد حماسة وأعنف مطلباً ، وأعظم شوقاً ، لأنه وحده يستطيع ان يقيس هول المأساة الكبرى التي حلت بأهله ودياره ، عندما لوى بالأمس عنان طموحه ودخل في نفق الظلام طوال اربعمائة عام كانت نكبة للانسانية كلها بافتقاد المشاركة العربية » .

واستمر فؤاد الشايب ، بقلمه المبدع ولسانه البليغ ، ينشر المعرفة ، ويدافع عنها ، ويحمي حق العروبة في الفكر والارض والحياة الحرة ؛ ولم تكن وفاته المباغتة سوى نتيجة الجهد العملاق الذي بذله من ذاته ، ولم يبخل به على احد .

. . .

بدأ فؤاد الشايب الكتابة منذ أكثر من أربعين عاماً، بدأها في وقت كان للكلمة حساب، وعلى قائلها مسؤولية. كان الأدب المتداول آنذاك أقرب الى الشيوع منه الى الطرافة. وتمكن فؤاد أن يختص لنفسه بأسلوب في الكتابة استمر يرافقه طوال حياته - انه أسلوب تفجير الكلمة من الداخل، لكي تعطي معاني جديدة، أو لتوحي بمشاعر لم تكن توحي بها من قبل.

شارك في نشاط العروبة الأدبي كاتباً قصصياً، وناقداً للأعمال أدبية ومسرحية، ومدافعاً عن قيمة الأدب والفكر، وعن أهله، باكياً اياهم حين كانوا يأفلون، فكانت تنطلق الكلمات من قلمه لتتحول فوراً الى مشاعر بل الى فعل في نفوس قارئيه أو سامعيه.

قدم بحوثاً جديدة الى مختلف مؤتمرات الأدباء العرب التي شارك فيها، وكان خلالها عضواً بارزاً فعالاً. وقد يكون البحث الذي قدمه الى مؤتمر الأدباء العرب الخامس الذي عقد في بغداد سنة ١٩٦٥ من أجمل وأمتع البحوث التي تداولها المؤتمرون.

في هذا البحث قال فؤاد الشايب: لا في معركة التحدي التي تخوضها

أمتنا ، مع حالة العداء الغامرة التي وصفنا ، ليس عليها ان تحارب إعداءها الأقوياء فحسب ، ممن يمثلون العنصر الأجنبي السافر ، فيما هي مقبلة عليه من هول التجربة والمعركة ، بل عليها في الوقت نفسه أن تتعلم ممن تحاربهم كيف يحاربون ، فتقبل عليهم وهي تناجزهم ، وتقبل سلاحهم بينما هي تحطمه في أيديهم . وان يكن هذا التناقض العجيب عبئاً قاصماً ، لاتطيقه ظهور الجبناء ، فهو قدر الذين يستجيبون للتحدي ويخرجون الى لقائه . »

وادرك فؤاد الكاتب ما للكلمة والثقافة من دور في معركة الحضارة فقال :

«نعود الى تلازم المعركة والثقافة ، في حركة الامة العربية نحو الوحدة ، لنذكر أن الثقافة ، مثلما هي عمل بناء ، يرص لبنة فوق لبنة ، وراء النصر السياسي ويحفظه من التبعثر والضياع من جهـــة ، ثم ليؤمن له سلامة حركته واتصاله ، كما يقال باللغة الحضارية ، من جهة اخرى ، كذلك فان الثقافة ، بمعنى الخطاب والتعبير ، هي البلاغة المكتسبة من

فهم أحوال الزمان والمكان ، لتقوم بدورها المزدوج : الفني والاجتماعي .

« بهذا الجانب من معنى الثقافة ، لانخرج عن دستورنا العربي العريق في فهم البلاغة ، كما قرره لنا معلمونا الاوائل ، وفي مقدمتهم الجاحظ ، إذ لم يحددوا البلاغة على أنها لفظ ومعنى فحسب ، بل هي كما قالوا (انطباق أقدار الكلام على أقدار المعاني ، وأقدارها على أقدار السامعين وحالاتهم) ، وهو ما يعبر عنه عادة بجملة (لكل مقام مقال) أو (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) ، وليست الرشاقة واجتباء اللفظ والمعنى فحسب ، بل هي الى ذلك ، خطاب موجه الى نوعية المستمع وحالته النفسية ، وظرفه التاريخي . وما لم يأخذ التعبير الادبي بهذا الدستور لايعدو كونه ارسالاً في الهواء أو جعجعة تلتهمها اصداؤها » .

ثم يمضي فؤاد الشايب في نضاله الوحدوي ، من خلال القلم والثقافة فيقول : « عندما يثبت لدينا ثبوتاً ذهنياً وعملياً أن الوحدة معركة وثقافة كما قلنا ، يكون قد تأكد لنا معنى المناجزة والمطاولة في معركة ليس لميدانها حدود إلا حدود أقصى طاقات الأمة مادة وروحاً ،

حاضراً ومستقبلاً . والعلوم التي نفترحها على أنفسنا هي علوم تأهيل المجتمع العربي ، لمعركة نضالية كبرى ، يدخل فيها مادة حية ، لا حطباً ولا هشيماً . »

وبهذه الروح وهذا الإيمان استمر فؤاد الشايب يناضل في سبيل العروبة ، في بوينس أيرس ، حتى وقف قلبه الكبير فجأة عن الخفقان ، ولم يقف فكره عن التأثير في بني قومه .

. . .

من حق فؤاد الشايب ، ومن الوفاء لهذا الأديب العربي الأصيل ، أن تكرس « المعرفة » للأديب وفكره وحياته صفحات طوالاً في أعدادها المقبلة .

أما الآن فنكتفي بطلب الرحمة للأديب الفقيد ، ونشارك أهله وإخوانه وأدباء العروبة ألم المصاب ولوعة الافتقاد .

الطبقة العاملة
والرأسمالية الجديدة

ارنست ماندل

ترجمة : ميشيل كيلو

ارنست ماندل : واحـد من زعماء الحزب اليساري الاشتراكي البلجيكي ، ومحرر في صحيفة العلم الأحمر التروتسكية. وهو يعتبر من أشهر الاقتصاديين الماركسيين المحدثين ، ومن أشهر مؤلفاته : (تكون الفكر الاقتصادي عند ماركس) .

ألقى ماندل بحث (الطبقة العاملة والرأسمالية الجديدة)، في ندوة للقوى الاشتراكية عقدت في مدينة بيليفلد بالمانيا الغربية في عام ١٩٦٦ ، ونشرت وقائعها في كتاب :

Probleme Sozialistischer Politik. Verlag neuer kritik . Frankfurt 1966 .

— المترجم —

يبدو وضع الطبقة العاملة في أوروبا الغربية غير مشجع للوهلة الأولى. وهناك أمثلة عديدة تدل على أن سلطتها السياسية قد تجمدت. وإذا أخذنا للتدليل أسبوع العمل بساعاته الـ ٤٨، وتذكرنا أنه تحقق في سائر أنحاء أوروبا منذ عام ١٩١٨ – ١٩١٩، أي منذ ٤٨ عاماً، فانه لا محيد لنا عن اعتبار عجز الطبقة العاملة عن الوصول به الى أربعين ساعة تعبيراً عن هذا الجمود ويبرز ذلك بصورة خاصة حين نأخذ بالحسبان الارتفاع المذهل لانتاجية العمل في السنوات الخمسين المنصرمة. أما الوجه الآخر لجمود الطبقة العاملة فيبدو في عدم التفكير بالمطالبة بأسبوع عمل من ٣٥ أو ٣٢ ساعة.

أما في المجال الايديولوجي فان الطبقة العاملة تقف موقفاً دفاعياً في كل مكان من الغرب. وتتطابق أفكار قادتها في السياستين الداخلية والخارجية الى حد بعيد مع أفكار الطبقة البرجوازية وتصوراتها. واننا نشهد اليوم كيف تتبع حكومة حزب العمال البريطانية في سياستها الخارجية نفس خط حكومة المحافظين السابقة لها.

ويتجلى المظهر الثالث لهذا الجمود في تحول الطبقة العاملة الأوروبية الغربية إلى محرك وضحية في نفس الوقت لعملية « حرمان المجتمع من الايديولوجية »، التي تستهدف أمركة أوروبا الغربية. إن هذه العملية، في حال تحققها، ستعني تقوية الوعي النقابي لدى العمال على حساب تخليهم عن وعيهم الاشتراكي والطبقي، كما ستعني رضاهم بالمجتمع القائم، وتخليهم عن التفكير بأي أنموذج آخر للتنظيم الاجتماعي، وتوجيههم هذه السياسة الاصلاحية أو تلك ضمن النظام القائم، على غرار ما تفعله عديد من الأوساط الليبرالية التقدمية في الولايات المتحدة.

نستطيع إذن ملاحظة ما يلي:

آ – جمود الطبقة العاملة في أوروبا الغربية.

ب – انحسار وعيها الطبقي.

ج - خطر عام وشامل يستهدف « حرمان المجتمع من الايديولوجية » .

إذا ما أردنا التعرف بشكل أدق على وضع الطبقة العاملة في مختلف بلدان أوروبا الغربية ، لوجدنا أن الصورة سرعان ما تتمايز لتظهر بعض الفروق ، أو لتصبح أكـثر إيجابية ، وإن كانت ستبقى غير مرضية بشكل عام . فلو أخذنا مثلاً عملية « حرمان المجتمع من الايديولوجية » ، فاننا سنجد أنها لم تتحقق بنفس الصورة والحدة في كل مكان . إذ بينما تمثل سويسرا وهولندا والمانيا الغربية قطباً فيها ، حيث ينحصر النشاط الاشتراكي في فئات صغيرة معزولة نسبياً ، نجد أن ايطاليا وبلجيكا وانجلترا تملك وعياً اشتراكياً تتبناه جماهير كبيرة من العمال والموظفين الذين يرفضون النظام القائم ، لإيمانهم بأن الطبقات المسيطرة عاجزة تاريخياً عن حل مشاكلهم . أما بلدان أوروبا الجنوبية كاليونان واسبانيا والبرتغال فلها ميزات خاصة بها لن نعالجها هنا لعدم علاقتها بموضوع بحثنا ، وإن كنا نستطيع التأكيد على أن عملية « حرمان المجتمع من الايديولوجية » لم تنجح هناك بعد .

هذا التمايز يسمح لنا بالوصول الى نتيجة جد هامة : على الرغم من أن الجمود ، وانحسار الوعي الاشتراكي ، وعملية « حرمان المجتمع من الايديولوجية » منتشرة انتشاراً كبيراً في بعض البلدان الأوروبية ، فانه من الخطل الزعم بأن هذه الظواهر تمثل نتاجاً مباشراً لتطور الموضوعي الذي يتجلى في الاستقرار النسبي والتطور الرأسمالي المتناسق ، وهما الصفتان المشتركتان لكل بلدان أوروبا الغربيه . إن درجة التشغيل المرتفعه ، وازدياد الدخل الحقيقي ، وندرة البطالة هي القاسم المشترك الأعظم لكل بلدان غرب أوروبا في السنوات الـ ١٥ الأخيرة ، فاذا ما تذكرنا مرة أخرى أن الوعي الاشتراكي لم ينحسر إلا في جزء من هذه البلدان فقط ، لأمكننا القول أننا لا نقف حيال ارتباط ميكانيكي مباشر ينتج فيه الانحسار من الظروف الموضوعية ذاتها . ولو قارنا الآن درجة نمو الانتاج

الاجتماعي في كل من ايطاليا وفرنسا ، لوجدنا أنها كانت في ايطاليا أسرع منها في فرنسا ، ومع ذلك فان الوعي الاشتراكي الذي يتجسد في رفض الطبقة العاملة للنظام القائم ، هو في ايطاليا أقوى منه في فرنسا . ولو قارنا ارتفاع الأجور الفعلية في انجلترا وسويسرا ، لوجدنا أنه إما متماثل في البلدين ، أو هو في انجلترا أعلى منه في سويسرا ، ومع ذلك فان رفض المجتمع القائم هو اكثر انتشاراً بين العمال الانجليز منه بين عمال سويسرا . هذه الصورة لاتختلف عند مقارنة بلجيكا بهولنده، حيث تتفوق الأولى على الثانية تفوقاً كبيراً في سياستها الاجتماعية العمالية، ومع ذلك فإن الوعي العمالي يشمل قطاعات كبيرة من الطبقة العاملة في بلجيكا، بينما هو جد ضعيف في هولنده . إن الاعتقاد بالتحديد الاقتصادي الذي يزعم ، أن الوعي الطبقي منتشر فقط في المناطق التي تقوم فيها تناقضات كبيرة ضمن الرأسمالية ، وأنه قد اختفى في الأماكن التي تعمل فيها آلية الرأسمالية بانتظام ، ليس صحيحاً في الواقع ، لأن العلاقة بين التطور الموضوعي والعامل الذاتي ، أي بين قدرة الطبقة العاملة على النفاذ إلى السياسة والمجتمع بأفكارها الذاتية ، وبين انعكاس هذه القدرة في أذهان العمال ، هي علاقة جد معقدة . هـذا الترابط الجدلي للعناصر الموضوعية والذاتية يحدد بشكل حاسم إمكانات العمل المباشر للطبقة العاملة في غرب أوروبا ، وآفاق تطورها . إن التلفزيون والبراد والدراجة النارية وسيارة الفولكس فاجن لم تؤد إلى انحسار الوعي الاشتراكي بصورة اوتوماتيكية ، لأن المهم هو الطريقة التي تنعكس بها صور هذه الأشياء في أذهان العمال . وتتلخص القضية برمتها فيما إذا كانت هذه الأشياء تعتبر نتاجاً طبيعياً للتقدم الرأسمالي ، أم نتاجاً لكفاح الطبقة العاملة ، أي فيما إذا كان العمال يعتبرونها نتاجاً لنضالهم ، أو نتاجاً لصورة وهمية في أذهانهم عن الرأسمالية .

ثمة نقطة اخرى هامة يجب علينا ذكرها انطلاقاً من الحقائق السابقة ،

ألا وهي السؤال عما إذا كانت هناك امكانات موضوعية لنمو لاحق في الوعي الاشتراكي ، أي امكانات لتجاوز جمود الطبقة العاملة وللبدء بعمل اشتراكي على نطاق واسع . هذا السؤال يرتبط بزيادة حدة التناقضات ضمن الرأسمالية الجديدة خلال تطورها ، بمسألة ظهور نقاط مجابهة جديدة وأزمات . حين نجيب على هذا السؤال بالنفي ، ونتطلق من الفرضية القائلة ان مجتمع الرأسمالية الجديدة يستطيع القضاء على الأزمات وعوامل الصراع السياسية والاجتماعية ، فان مسألة نمو وتزايد الوعي الاشتراكي للجماهير الكبيرة ، وازدياد حدة الصراع الطبقي تكتسب طابعاً طوباوياً ، وتبدو كنتيجة من نتائج الدعاية والتربية الاشتراكيتين فقط ، وتنفصل عن التطور الموضوعي للاقتصاد والمجتمع .

ولكي لاتكتسب امكانية نمو الوعي الاشتراكي هذا الطابع الطوباوي ، يجب علينا أن نبرهن على أن تطور مجتمع الرأسمالية الجديدة يحمل عوامل صراع وأزمات سياسية واقتصادية كامنة لأن تكوين البناء التحتي المادي للجهود السياسية والنظرية والتربوية للقوى الاشتراكية الواعية ، لذا فانني سأقف مطولاً عند هذه النقطة ، وسأبحث عوامل الصراع الكامنة في مجتمع الرأسمالية الجديدة التي تحضر الجو موضوعياً لنمو أوسع للصراع الطبقي وللعمل الاشتراكي .

ثمة في هذا السياق سبعة عوامل تستحق الذكر :

يتلخص عامل الصراع الاول في أن تطورنا الاقتصادي سيحذو حذو التطور الاقتصادي للولايات المتحدة (حدث ذلك فعلاً في كل من فرنسا وايطاليا خلال الاشهر الـ ١٨ الاخيرة) هذا يعني أن أزمات دورية ستصيبه ، مع أنها لم تكن معروفة لفترة كاملة من الزمن في بعض بلدان غرب أوروبا كالمانيا الغربية مثلاً . اننا لن نشهد على الارجح أزمة اقتصادية أخرى مماثلة في عنفها لازمة ١٩٢٩ ، ولكننا سنشهد أزمات دورية باطنية يترتب عليها بقاء مئات آلاف العمال دون عمل ، وانقطاع دوري لارتفاع الاجور والدخل الفعلي .

ويمكننا اعتبار هذا العامل مصدراً محتملاً للصراع وللازمات السياسية ، فمئات الآلاف من العمال الاوروبيين الذين اعتادوا أن يرتفع دخلهم الفعلي من ٤ إلى ٦٪ سنوياً خلال الـ ١٠ أو ١٢ سنة الأخيرة ، لن يتلقوا فجأة لسنتين متتابعين أي شيء ، بل انهم ، بعكس ذلك ، سيفقدون بعض دخلهم الفعلي . إننا نقف إذن في مواجهة عامل موضوعي يمكن استغلالها لزيادة حدة التناقضات الاجتماعية ، وبالتالي الصراعات الطبقية .

٢ً) إن أشكال المزاحمة الدولية ، كما تسود اليوم في جميع بلدان غرب أوروبا بما فيها بلدان السوق المشتركة ، تجعل تحديد الأجر الفعلي ، أو فلنقل تحديد تكاليف الأجر كما يراها الرأسمالي ، موضوعاً للسياسة الداخلية تتركز عليه أنظار الرأسماليين والدولة البرجوازية ؛ فيزعم الرأسماليون بصورة دورية أن رفع الأجور سيضعف قدرة هذا البلد أو ذاك على المزاحمة في السوق الدولية ؛ ويطالبون ، وتتبعهم في ذلك الدولة البرجوازية ، بايقاف العمال عند حدهم ، وبالتقشف وضبط الحياة الاقتصادية ... الخ ..

وربما كانت المانيا الغربية شذوذ هذه القاعدة ، ليس لأن حكومتها لاتتحدث عن التقشف ، بل لأنها لم تفعل حتى الآن شيئاً يذكر من أجل تنفيذ برنامج تقشفي . ويكمن سبب ذلك في الاسبقية الانتاجية التي تملكها صناعتها بالنسبة لصناعات بقية بلدان أوروبا الغربية ، الأمر الذي يمكنها من رفع الأجور بنسبة ١٠ - ١٢ ٪ أكثر من غيرها من البلدان، دون أن يتسبب ذلك في التأثير على قدرتها على المزاحمة . إن الصناعة الانجليزية لاتملك مثل هذه الأسبقية ، لذا أصبحت ضراوة الرأسماليين والحكومة بالغة الحدة في حقل السياسة الداخلية ، ويبدو ذلك بشكل خاص حين يتجاوز ارتفاع الأجور انتاجية العمل مرة كل سنة .

إننا مضطرون للقول بأن هذه هي أيضاً سياسة حكومة حزب العمال ، التي تزعم كسابقتها المحافظة ، أن هذا الارتفاع يهدد ميزان الصادرات ، وأنه يجب وقفه بأي ثمن ! .

إننا سنواجه محاولات دورية يقوم بها الرأسماليون والحكومات السائرة في ركابهم لايقاف مايسمونه بالارتفاع المسرف للأجور. في هذه الهجوم الرأسمالي ـ الحكومي تكمن عناصر صراع لن يزيدها رد نقابات العمال والطبقة العامة إلا حدة .

٣) يوجد اليوم في أوروبا الغربية اتجاه قوي لتضييق الاستقلال الذاتي لنقابات العمال في تحديد تعرفة العمل ، والحد من تزايد نفوذ النقابات في ظروف التشغيل العام بواسطة الدولة البرجوازية . إن الرأسماليين يريدون أن تصدر الدولة قوانين تنظم « سياسة الدخل » وتحول دون الاضرابات العمالية العنيفة التي قد تنشب ضد اتفاقات علنية سابقة معهم أومع الدولة . لقد سبق وشرحت في كتب ومقالات عديدة الارتباط بين هذا الاتجاه ، وبين تطور الرأسمالية الجديدة في المجال الاقتصادي ، لذافإنني سأكتفي بمعالجة هذا الموضوع باقتضاب .

إن الميل السائد لتسريع التجديد التكنولوجي لرأس المال الثابت ، والاتجاه نحو تخطيط تلفه لمدى طويل ، وهو مانسميه بالاتجاه المتزايد نحو البرمجة ، يشترطان تخطيطاً طويل الأمد لنفقات الأجور ، الأمر الذي يتناقض مع الاستقلال الذاتي لنقابات العمال في تحديد تعرفة العمل . ويمكن القول بطريقة أخرى وبمفاهيم أكثر علمية ، أن فقدان الناظم الطبيعي للاقتصاد الرأسمالي ؛ أي جيش العاطلين الاحتياطي ، يحول الاستقلال الذاتي للنقابات في تحديد تعرفة العمل إلى خطر كبير على ديمومة النظام الرسمالي . فعندما يوجد « فائض تشغيل »

كما يقول الاقتصاديون البرجوازيون ، وتكون سلعة العمل نادرة باستمرار في « سوق العمل » ، تنشأ ظروف معينة يمكن في ظلها التفاوض « بحرية » حول سعر العمل ، وهذا مايهدد بتخفض ربح الرأسمالي تخفيضاً كبيراً . إن الرأسماليين يعملون للتخلص من هـــذا الوضع ، ولا يجدون وسيلة لتحقيق ذلك في ظل التشغيل العام سوى الحد من استقلال نقابات العمال في تحديد تعرفة العمل . وهكذا يطالبون بتنظيم « سياســـة الدخل » بسن قوانين معادية للنقابات وللاضرابات العمالية . لقد تنبأت بهذا الوضع منذ سنوات ، واليوم تتحقق هذه النبوءة بصورة محزنة في بريطانيا ، حيث نظمت حكومة حزب العمال « سياسة الدخل » وحدت من الاضرابات ، مع أن حكومات المحافظين لم تجرؤ على القيام بذلك خشية ضياع نفوذها .

من الواضـــح أن الاعتداء الحكومي على حقوق النقابات يشكل عاملاً هاماً في ادخال الأزمة السياسية والاجتماعية الى مجتمع غرب أوروبا ، وفي خلق قاعدة موضوعية لنمو أوسع في الوعي الاشتراكي .

٤ - لن أفصل في شرح هذا العامل ، فهو معروف جيـــداً : ثمة في الاقتصاد الغربي عدد كبير من المشاكل المرتبطة ببنية النظام والتي لم تحل بعد ، مع أنها تحمل بذور أزمات . من هذه المشاكل مشكلة المناطق المتخلفة ، ومشكلة مناطق حالات الطوارىء في جميع البلدان الأوروبية ، ومشكلة بعض الفروع الصناعية المتهاوية ، والمرتبطة غالباً بمناطق معينة ، كصناعة الفحم ، والسفن ، والنسيج ، ومشكلة الأزمة الزراعية الدائمة التي تثير ردود فعل عنيفة في بعض البلدان كفرنسا ، حيث تؤثر تأثيراً شديداً على الانتخابات وهناك فضلاً عن ذلك عدد آخر من المشاكل التي لم تحل بعد ، والتي تحمل دون شك عناصر صراع اجتماعي .

٥ – يكمن عامل الصراع هذا في رغبة البرجوازية ، وهي خفية في بعض البلدان ، علنية في أخرى ، في إقامة « دولة قوية » تجرد البرلمانية التقليدية وما يرتبط بها من كل السلطات . إننا نشهد محاولات متكررة لتجريد البرلمان حتى من سلطاته الشكلية بواسطة تغيرات دستورية جوهرها تعسفي استبدادي . وتعتبر فرنسا المثال الحي لهذه الرغبة .

٦ – تكمن خطورة عامل الصراع هذا في الشكل الحاد الذي يأخذه في أيامنا ، وسيأخذه خلال السنوات العشرة القادمة ، استلاب المنتج في اطار الاتمتة المتزايدة . وسأورد في هذا السياق مثالاً من بلادي بلجيكا ، حيث يعتبر عمال مصانع الفولاذ أكثر قطاعات الطبقة العاملة ديناميكية ، مع أنهم يتقاضون أفضل الأجور . إنهم أكثر فئات الطبقة العاملة تطرفاً على الصعيدين السياسي والنقابي ، فهم الذين ابتدؤا الاضرابين العامين الكبيرين في عامي ١٩٥٠ و ١٩٦٠ ، ولا زالوا يسيرون حتى الآن في مقدمة حركة الطبقة العاملة ، حتى حين لا يكونون طرفاً في النزاع . لقد تغيرت حالة هؤلاء العمال في السنوات الثلاث أو الأربع المنصرمة تغيراً كبيراً بسبب الاتمتة ، ففي أكبر ورشة في البلاد تناقص عدد العمال عدة آلاف خلال هذه السنوات القليلة ، ولكن عاملاً واحداً لم يعاني من انقطاع دخله ، لأن الرأسماليين كانوا من الذكاء بحيث لم يتحدوا نقابة عمال الفولاذ القوية ، بل أعادوا تشغيل العمال في ورشات ومصانع أخرى تابعة لهم ، أو أحالوهم على التقاعد برواتب أكبر . بهذه الطريقة تجنب الرأسماليون انفجار العمال .

هذه القضية التي تبدو وكأنها انتهت قد تنفجر حين يفكر العمال من جديد فيما حدث لهم ، خاصة وأن عددهم قد تناقص في المصنع الذي كانوا يعملون فيه من ٢٣ ألفاً ، إلى ١٠ آلاف عامل : هذا الحساب البسيط سيجعل العمال يخشون فقدان عملهم ،

وسيدفعهم الى البحث عن السبل الكفيلة بالحيلولة دون ان تصبح الطبقة العاملة ضحية مكننة صناعة الفولاذ ؛ وهم سيتوصلون دون شك إلى أن ضغط ساعات العمل ، ووضع التجديد التقني تحت رقابة نقابات العمال هو الحل الوحيد للمشكلة .

هذه العملية التي نشهدها اليوم بصورة مكثفة عند عمال الفولاذ البلجيكيين ونقابات الصناعات التعدينية وجهت الانظار من جديد الى موضوع جُمِّدَ منذ ثلاثين عاماً ، ألا وهو موضوع رقابة النقابات للتجديد التكنولوجي .

إن هذا ليس عامل صراع فقط ، بل هو عامل صراع انفجاري يتجلى في طرح قضية السلطة في المصنع . فإما سلطة الرأسمالي بأن يتصرف بوسائل الانتاج كما يحلو له ، أو تحديد هذه السلطة واخضاعها لإشراف النقابات والعمال بمجموعهم .

٧ – يبرز عامل الصراع هذا من أهمية مشا كل استلاب المستهلك بأوسع معاني الكلمة . إن أهمية هذا العامل معروفة للجميع بسبب ارتباطه بجميع المسائل المتعلقة بالاستهلاك الفردي المتزايد ، وبمعيشة المجتمع بكامله ، كأزمات التعليم ، والصحة ، وتنقية الهواء من دخان الصناعة ، وتنقية المياه ومسائل غش المواد الغذائية وسوء نوعيتها ، وأزمة السكن التي تمثل عبأ كبيراً يلازم جميع البلدان الأوروبية . إن جميع هذه المسائل ترتبط بالصورة الاستهلاكية للعمال الاشتراكيين من جهة ، وبالصورة التي يرسمها الاقتصاد الرأسمالي الحر عن نفسه من جهة اخرى .

ونستطيع أن نقول باختصار أنه توجد عوامل صراع موضوعية عديدة

يمكن استغلالها بمعنى اشتراكي لتربية العمال نظرياً وعملياً ، وللاستفادة منها من أجل تحقيق مكاسب اشتراكية .

بعد هذا الغوص السريع نصل الى المسألة الرئيسية التي تهمنا هنا ، وهي مسألة الاستراتيجية التي يجب على الطبقة العاملة أن تنهجها ، والتي نلخصها بعبارة « الاصلاح البنيوي » . إن علينا أن لاننسى ، وبالانطلاق من تجارب ايطاليا وبريطانيا وبلجيكا ، كيف نميز بدقة بين الاصلاح البنيوي كما تفهمه الرأسمالية الجديدة ، وبين مانسميه نحن في الحركة العماليـــة بالاصلاح البنيوي المعادي للرأسمالية .

وماهي الاصلاحات البنيوية ؟ . إنها محاولة لتجاوز الثنائية القديمة في واقع الطبقة العاملة بين برنامجي الحد الأدنى والأعلى . إننا نصل عند دراسة واقع الطبقة العاملة ، أي عملها اليومي ومطالبها ونشاطاتها ومظاهراتها واضراباتها ، الى نتيجة هامة ، وهي أن نشاطها اليومي قد تركز خلال السنوات الخمسين الأخيرة على مطالب يستطيع المجتمع الرأسمالي هضمها اقتصادياً ، وقد هضمها فعلاً . وإن المناقشة حول ما إذا كانت الرأسمالية تستطيع هضم رفع الأجور بنسبة ١٠ ٪ أم لا ، هي مناقشة كان يمكن خوضها منذ خمسة وسبعين عاماً ، أما اليوم فلسنا بحاجة للخلاف حول قدرة الرأسمالية على تحمل مثل هذه المطالب .

إن الاضرابات والمظاهرات التي قام بها العمال من أجل تحقيق المكاسب التي حصلوا عليها كافية لملء كتب عديدة ، ولكنها لم تؤد الى انهيار الرأسمالية . هذا لايعني أن النشاط العمالي لم يكن ضرورياً ، إذ لولاه لتحول العمال الى حفنة من التعساء ولاختفوا كطبقة ، بل يعني أنه لم يهدد بشكل فعلي وجود النظام الرأسمالي . هذه الحقيقة تعني ، بكلمات أخرى ، أن علينا الانطلاق من الحاجات

والآمال المباشرة للطبقة العاملة ، والتعبير عنها في مطالب لاتتطابق فقط مع درجة وعي العمال ، بل تخلق فيهم كذلك ديناميكية داخلية تتعارض بصورة متزايدة مع وجود النظام الرأسمالي . بهذا المعنى يمكن تجاوز الثنائية والتنازع القائمين بين برنامج الحد الأدنى وبرنامج الحد الأعلى لمطالب الطبقة العاملة ، وبهذه الطريقة تتحول قضية التحويل الاشتراكي للمجتمع من مسألة دعاية مجردة في مدارس الاحد أو الكتيبات النظرية ، وتصبح مسألة عملية للصراع الطبقي المباشر ،لأنها سترتبط عندئذ بتكتيك ذكي مع المسائل اليومية الاقتصادية والاجتماعية ، ومع حاجات العمال الملحة .

تتركز القضية الرئيسية إذن في خلق ديناميكية مزدوجة ؛ في اذهان العمال الذين سيقتنعون شيئاً فشيئاً بضرورة تجاوز المجتمع القائم في البدء ، ثم في الواقع ، حيث ستقود هذه الديناميكية في فترات مختلفة الى انفجار الصراع الطبقي في سلسلة من الاضرابات والمظاهرات الجماهيرية والاضرابات العامة التي ستؤدي بدورها الى تحول في السلطة السياسية يقود الى ازدواج فيها ، يتم حله فيما بعد عن طريق ادراج مسألة السيطرة على السلطة في جدول الأعمال اليومية للطبقة العاملة. إن الطريق الموصلة إلى هذا الهدف هي العمل داخل البرلمان وخارجه . وأناأفضل التركيز على العمل خارجه ، حتى لو بدا موقفي متطرفاً بالنسبة للكثيرين .

أين هي نقاط ضعف هذه الاستراتيجية ، وماهي العناصر الخطرة التي تحتويها ؟ . إن نقاط ضعفها تكمن في أن الرأسمالية الجديدة ، وبتعبير أفضل ، الفئات الديناميكية في المجتمع البرجوازي ، تريد أن تدخل في ايامنا هذه عديداً من الاصلاحات البنيوية على الاقتصاد . إن صراعاً يدور ضمن الطبقة البرجوازية بين القوى المحافظة والقوى الديناميكية ، والطبقة العاملة مهددة ، في حال إهمالها لدورها

التاريخي ، بأن تصبح أداة في يد إحدى هاتين القوتين الرأسماليتين، تستغلها لتحقيق الإصلاحات التي تخدم مصالح رأس المال الاحتكاري وفئاته السائدة فقط .

قـــد يكون هناك من سيسأل : ماهو وجه السوء في أن تتم بعض الاصلاحات البنيوية ، حتى ولو كانت لمصلحة بعض فئات رأس المال الاحتكاري؟. اعتقد شخصياً أن حدوث هذا هو أمر في غاية السوء لأسباب سياسية وموضوعية. فمن جهة لاتستطيع الطبقة العاملة العيش في ظروف توتر اجتماعي دائم ، وليس هناك في تاريخ الطبقة العاملة بلداً واحداً كان الاضراب العام مدرجاً فيه باستمرار في جدول الأعمال اليومية ، لأن ذلك يتناقض مع القوانين البيولوجية ، ومن جهة أخرى يتخذ كفاح الطبقة العاملة واستعدادها النضالي شكلاً تموجياً تحدده العوامل الاقتصادية والسياسية الموضوعية ، كما تحدده العوامل الذاتية . ويمكن القول أنه حين لايكفي الاستعداد النضالي والثقة بالنفس لتحقيق النصر عند ارتفاع الامواج الاجتماعية ، وحـــين تهدر الطاقات المحشودة أو تستخدم لتحقيق اهداف تقوي العـــدو ، فان الفرصة تضيع من أيدينا لفترة تاريخية مداهـــا عشرة أعوام أو خمسة عشر عامـــاً ، لأن الاتجاه التصاعدي للموجة الثورية يعقبه دوماً إتجاه انحداري تكون له دوماً نتائج وخيمة على نسبة القوى بين العمال والرأسماليين، وبينهم وبين الدولة البرجوازية . هذا الاتجاه الانحداري سيشمل كل القطاعات ، ولن يتوقف عند المشاكل اليومية فقط .

في هذا الصدد يمكننا أن نأخذ ايطاليا كمثال . هـــذا البلد الذي تبرز نواحيه الايجابية باستمرار ، مع أن سلبياته هامة ايضاً . لقد دعيت الطبقة العاملة في ايطاليا ، وطيلة ردح من الزمن ، إلى القيـــام بالدعاية ، وإلى العمل لتغيير الظروف الموضوعية بصورة حاسمة . وأوقظ فيها الأمل بأن ظروف عملها ومعاشها

ستتغير بصورة جذرية ، مع أن القادة كانوا يعرفون أن الفرصة جد ضئيلة لتغيير أي شيء . لقد ترتب على هذه السياسة خيبة أمل اعاقت انتقال العمل الثوري الى مرحلة أرقى ، كما ترتب عليها احساس العمال بالعجز .

في هذا السياق سأعطي بعض الأمثلة حول صياغة الشعارات صياغة مبهمة ذات معنيين ، وحول تأثيرها الفعلي في كل من بلجيكا وايطاليا وبريطانيا ، حيث توجد أنضج طبقة عاملة أوروبية . ولنأخذ الآن التأميم كمثال .

من الواضح أن تأميم القطاعات الصناعية التي ترزح تحت عجز مالي دائم ، أي التي يرفع سعر تكلفتها العالي سعر التكلفة الوسطي للانتاج الرأسمالي بجمله، فيعيق قدرة الطبقة الرأسمالية على المنافسة في السوق الدولية ، هو في مصلحة تلك الفئات التي تعمل بنشاط وديناميكية عدوانية في السوق الدولية ، أي في مصلحة منتجي ومصدري السلع الانتاجية . فعندما يعد المرء العمال بأن نتيجة تأميم كهذا ستكون جبالاً من ذهب ، وتبرهن التجربة الفعلية أنها لم تكن سوى تأميم الخسائر وتحميلها للأمة بكاملها على شكل ضرائب مفروضة على سلع الاستهلاك الجماهيري ، فان ذلك سوف يقود إلى خيبة أمل كبيرة ، خاصة حين تزداد ظروف العمل سوءاً في المؤسسات المؤممة نتيجة للتعقيل السريع الذي تدخله الدولة فيها ، كما حدث مثلاً في صناعة الفحم الانجليزية في السنوات الأخيرة .

مثال آخر : في ايطاليا رفع شعار التخطيط الديمقراطي كبديل للبرمجة الرأسماليه ، دون أن تحدد الطبيعة الطبقية لهذا الشعار بصورة دقيقة . لقدتناقشت مرات عديدة مع رفاق ايطاليين ، وقلت لهم انني اعرف تخطيطاً اشتراكياً وبرمجة رأسمالية ، ولكنني لاأعرف تخطيطاً ديمقراطياً . وسألتهم عما إذا كان هذا الشيء كائن لاهوية له ! ، كما ذكرت أن المرء لايعرف بدقة هوية المصالح

والطبقات الاجتماعية التي سيخدمها هذا « التخطيط الديمقراطي » . وكان الرفاق الايطاليون يجيبون بأن القضية برمتها ليست سوى مسألة صياغة ، وأن الشعار يمتاز عن غيره ببساطته وقدرته على الوصول الى الجماهير . فما الذي جرى بعد ذلك في الواقع ؟ . لقد جاءت حكومة « يسار الوسط » ، حكومة المسيحيين الديمقراطيين المتحالفة مع اشتراكيي نيني ، فتبنت شعار « التخطيط الديمقراطي » الذي افتضح كتخطيط بحت للرأسمالية الجديدة يشتمل على الأزمات والبطالة . أما العمال فقد أصابتهم الحيرة ، لأن نفس الشعار صار يتردد على مسامعهم من جانبي المتاريس ، وكانت النتيجة أن انعدمت قدرتهم على التصرف وفق مصالحهم الطبقية ، وصاروا ضحية للأحداث . في هذه المرحلة ، مرحلة انخفاض النشاط الاقتصادي ، حيث كان من المنتظر أن تشتد حدة الصراع الطبقي ، وقفت الطبقة العاملة عزلاء حيال التسريح الجماعي التعسفي في الورشات والمصانع الكبيرة .

أما في انجلترا فإننا نشهد اليوم مثالاً كلاسيكياً لازدواج معنى ما يسمى بالاصلاحات البنيوية . إن المجتمع البرجوازي الانجليزي والاقتصاد الرأسمالي مفلسان الى أبعد الحدود في نظر العمال الانجليز ، لأنهما عجزا ، حتى من وجهة نظرهما الخاصة ، عن توطيد مركزهما في العالم بأية صورة كانت . في مقابل ذلك ازدادت ثقة العمال الانجليز بأنفسهم ، وقويت قناعتهم بأن الاشتراكية هي الحل الوحيد لمشاكلهم ، وبأن حكم حزب العمال سيجدد الحياة القومية ومركز انجلترا الدولي . لقد استغل حزب العمال هذه المشاعر استغلالاً كبيراً في الانتخابات وكسبها رغم الحالة الاقتصادية الحسنة والتشغيل العام . أما البرنامج الذي وضعته حكومة حزب العمال لتجديد الاقتصاد والمجتمع البريطانيين ، فكان تخطيطاً رأسمالياً جديداً تحقق على حساب الطبقة العاملة ، وحرية واستقلال نقاباتها في تحديد

تعرقة العمل ، وعلى حساب تخفيض الأجور الفعلية للعمال عن معدلها في السنوات العشرة الأخيرة . لقد أدركت أقلية صغيرة من رفاقنا المثقفين في حزب العمال هذه الحقيقة ، وحين سيرى العمال مردود السياسة الاقتصادية لحكومة حزب العمال على حياتهم ، فانهم سيصابون بخيبة أمل سيكون لها تأثير مفزع على توزيع القوى بين الدولة البرجوازية والطبقة الرأسمالية من جهة ، والطبقة العاملة من جهة ثانية .

بهذه المناسبة اود أن أشير إلى أن الشيوعيين الايطاليين ، الذين قطعوا شوطاً كبيراً في الاصلاح البنيوي غير المعادي للرأسمالية ، قد اصيبوا بنكسة جد خطيرة . لقد اعترف هؤلاء الرفاق في مؤتمر خلايا الحزب في المصانع المختلفة بأن سياستهم قد أدت إلى نتائج مزرية بالنسبة للتنظيم ، ولحالة الوعي عند العمال الصناعيين ، وخاصة في المصانع الكبيرة . إنني لست عضواً في الحزب الشيوعي ، ولكنني مقتنع بأن مصالح الطبقة العاملة في بلد كايطاليا مرتبطة أشد الارتباط بوجود حزب شيوعي قوي . لهذا السبب كانت الارقام التي ذكرها المؤتمر مخيفة ، ففي مصانع فيات الكبيرة في تورين التي تضم ١٢٠ الف عامل انخفض عدد الشيوعيين إلى ٩٠٠ عضو منظم . إن حزبي اليساري الاشتراكي الصغير يتمتع في بلجيكا بأفضلية كبيرة بالنسبة للشيوعيين الايطاليين ، إذ أن لدينا في اكبر مصنع بلجيكي ٢٥٠ عضواً من مجموع ١٨٠٠٠ عامل . بهذه الصورة تنعكس الشعارات الخاطئة في وعي العمال ، فاذا أردنا تغيير نتائجها وتجنب مردودها في المستقبل ، وجب علينا تغييرها بصورة جذرية .

أين يكمن الفارق في صياغة شعارات استراتيجية الاصلاح البنيوي المعادي للرأسمالية واستراتيجية الاصلاح البنيوي الرأسمالي الجديد ؟ . إنني سأوضح هذا الفارق في النقاط الأربع التالية :

١) النقطة الأولى تتعلق بمسألة التأميم . هـــذه النقطة لا تصلح بالطبع لبلد كالنمسا ، حيث القطاع العام قوي ويشمل نصف الاقتصاد تقريباً ، ولكنها تصلح لبقية بلدان غرب أوروبا ذات القطاع العام الضعيف نسبياً . إن مطلب التأميم ونقل الملكيات الرأسمالية إلى ملكية عامة لا يجوز أن يقتصر على القطاعات الصناعية الخامرة أو الثانوية ، كما لا يجوز أن يقف عند القطاعات التي يعتبر الطلب على منتجاتها متجمداً تاريخياً ، أو التي تفقد أهميتها بمرور الزمن ، أو حيث توجد خسارة ، أو يكون المردود ضعيفاً بل يجب أن تتركز المطالبة بالتأميم على القطاعات الصناعية والمالية الهامة والرئيسية التي يمكن تطويرها . إن علينا أن نقوم بما كان حزب العمال البريطاني يرمي اليه عند الحديث حول السيطرة على المراكز القيادية ، لأن سيطرتنا على المراكز الثانوية لن تؤدي إلى تغيير البنية الاساسية للاقتصاد والمجتمع ، ولهذا لا يجوز المطالبة بتأميم المشاريع الخامرة والمتجمدة ، بل يجب المطالبة بتأميم المشاريع الرابحة والمتطورة . هذه هي النقطة الرئيسية .

٢) إن مطلب التأميم ، مطلب الملكية العامة للاقتصاد ، والقضاء على بنيته الاقطاعية التي تمكن ١٠٠ أو ٢٠٠ عائلة من السيطرة على الاقتصاد في غالبية بلدان أوروبا الغربية ، هو مسألة لا يجوز طرحها الا من خلال ارتباطها بمشكلة البنية الداخلية للمصانع . فإذا كان التأميم يعني ملكية المجتمع لوسائل الانتاج ، فإن القطاع العام يجب أن يعني نهاية النظام التسلطي في المصانع ، وبدء التسيير الذاتي الذي يستهدف تطوير رقابة العمال على الانتاج حتى في القطاع الفردي « الاقطاعي » . وفي اعتقادي أن مسألة رقابة العمال للانتاج هي اليوم المسألة الرئيسية للاستراتيجية الاشتراكية في الغرب ، بما فيه الولايات المتحدة الاميركية ،

لذلك يجب طرحها طرحاً تكتيكياً خـالٍ من الدوغمائية ، بحيث نصل إلى المعطيات الماركسية التقليدية من خلال تحليل تطور الاقتصاد وتناقضاته .

لقد سبق وتحدثت عن رقابة العمال للانتاج كوسيلة لمنـع استغلال الاتمتة من أجل تسريح جماعة كبيرة من العمال ، وسأضرب الآن مثالاً آخر يلعب دوراً كبيراً في سياسة بلادي ، بلجيكا .

إننا نجد انفسنا الآن أمام اصلاح ضريبي جديد ، أمـام نضال حاد لمنع رفع الضرائب غـير المباشرة على السلع الاستهلاكية . ويلعب احتيال الطبقة البرجوازية على دفـع الضرائب واستفادتها على نطاق واسع من الامتيازات الضريبية غير المبررة ، دوراً كبيراً في هـذا النضال . لقد حسبنا المبلغ المستحق على البرجوازيين الكبار والصغار ، فوجدنا أنه يعـادل مليار مارك ، كما وجدنا أن العمال يدفعون سنوياً هذا المبلغ الهائل على شكل ضرائب استهلاكية تضاف إلى ضرائبهم العادية . فكيف نمنع هذا الاحتيال ؟ . إن ذلك لن يتم عن طريق إرسال آلاف البيروقراطيـين لمراقبة حسابات الرأسماليين (فهؤلاء يدققون حسابات المصانع في النهار وينهمكون في تزوير ميزانيتها في الليل) ، بل يتم بوضع ميزانيات الرأسماليين تحت رقابة اولئك الذين لا مصلحة لهم في اخفاء أي شيء ، أي تحت رقابة جماهير العمال في المصانع . إن واجبنا ينحصر إذن في صياغة شعارات رقابة العمال للانتاج والغاء أسرار العمل في المصانع والبنوك بطريقة يفهمها العمال ، ويعملون لها كوسيلة لمنع البرجوازية من التلاعب بالضرائب . ونحن على ثقة من أن النتائج ستكون مفيدة بالضرورة ، حتى لو كان العمال الذين ينعمون بقسط من التربية والخبرة الاشتراكية قلة قليلة .

٣) يجب أن يصاغ الاصلاح البنيوي المعادي للرأسمالية في شعار حكومي

دقيق وموضوعي هدفه تغيير الحكومة وظروف السلطة السياسية للبلاد المعنية. ولا يجوز فهم هذا الاصلاح كمشكلة اقتصادية أو تقنية، بل يجب النظر اليه كقضية تتعلق بالسلطة السياسية، فمسألة السيطرة السياسية للعمال على الدولة لا يجوز أن تفصل مطلقاً عن الاصلاح البنيوي المعادي للرأسمالية. لقد عبرنا عن ذلك في بلجيكا بشعار الحكومة العمالية. ومع أن البعض يعتقد بأن هذا الشعار لا يصلح لبعض البلدان، فان من الواجب التأكيد على ضرورة اقناع جماهير العمال بأن المسألة الرئيسية هي مسألة السلطة السياسية، وبأن كل ما سيقرر سيكون ذا طبيعة سياسية. فالعمال لا يمارسون حريتهم حين يختارون بين حمام بارد وساخن في المصنع، بل حين يعملون لانتزاع السلطة من أيدي الطبقة البرجوازية المسيطرة على الدولة. إن تحقيق هذه الأهداف ممكن فقط إذا أحسنا الدعاية لها، وربينا العمال تربية اشتراكية صحيحة.

٤) هذه النقطة هي أهم وأصعب النقاط جميعاً. إذ يجب، من خلال استعمال كل وسائل التأثير على الجماهير، صياغة انموذج اشتراكي يشمل جميع نواحي الحياة الاجتماعية ويعتبر بديلاً مقنعاً للانموذج البرجوازي. كما يجب مواجهة برمجة الرأسمالية الجديدة بافكار التخطيط الاشتراكي عن طريق اعطاء الأفضلية لبعض الصناعات الاستهلاكية التي يمكننا الانطلاق منها لخلق صورة جديدة للتخطيط والتطور الاقتصاديين. من جهة أخرى يجب أن نركز انموذجنا الاشتراكي على تحطيم اسطورة الاقتصاد الحر التي لازالت تعشش حتى الآن في رؤوس بعض الاشتراكيين والعمال. وإن علينا أن نؤكد باستمرار على أن الاقتصاد الاشتراكي يعني استبدال الاقتصاد الحر باقتصاد يقوم على تغطية الحاجات، الأمر الذي لم

يعد شعاراً نظرياً مجرداً ، بل حقيقة نعيش اليوم بداياتها في الدراسة والخدمات الصحية المجانيتين .

لقد تبنى بعض اليساريين الفرنسيين والانجليز شعار إقامة خدمات سكنية مجانية ، وقالوا أن تحقيق ذلك سيقطتع جزءاً هاما من الدخل القومي لاتستطيع الدولة البرجوازية توزيعه حسب اعتبارات السوق الحرة . وبغض النظر عن أنني لا أريد مناقشة مثل هذه المطالب ، فإنها تثير الاهتام لأنها غدت جزءاً من النضال الاشتراكي . عند هذه النقطة أريد لفت انتباهكم إلى مثال آخر . إننا نعلم أن استهلاك الخبز لايمثل في غالبية بلدان أوربا الغربية سوى٥و١ إلى ٢٪ من الدخل القومي إن توزيع الخبز مجاناً هو أمر يقع في حدودالامكان، دون أن يتسبب في هزات اقتصادية من أي نوع كان .

من الطبيعي أن يتذمر الخبازون وأصحاب المطاحن من مطلب كهذا ، وهم محقون في تذمرهم ماداموا يعيشون في مجتمع رأسمالي ، ولكن حين يعترض علينا بحجة أن الخبز المجاني سيتسبب في نفقات باهظة ، فاننا سنرد بأن ارتفاع استهلاك الخبز حتى نسبة ٤٪ من الدخل القومي ، لا يمثل سوى جزء يسير من النفقات العسكرية الباهظة التي تبدد كل عام .

إن النضال من أجل الخبز والحليب المجانيين سيقربنا منهدفنا الاشتراكي أكثر من أي مطلب اقتصادي معقد لايفهمه جمهور العمال .

من الواضح أننا لن نستطيع استخدام بعض هذه المطالب إلا بصورة دعائية بحتة في نشاطنا من أجل اصلاح بنيوي معاد للرأسمالية ، ولكن من الذي يستطيع أن يقلل من دور الدعاية والتربية العمالية ؟ إنني لن أكرر ماسبق

وقلته عن أن الظروف الموضوعية حيادية إلى حـد بعيد ، وأنها لاتقود في هذا الاتجاه أو ذاك !

إن عدم استغلال الطبقة العاملة للقوى الانتاجية المتعاظمة ، وعجزها عن صياغة مطالبها في برنامج لا تستطيع الرأسمالية تمثله ، هما من الأدلة الواضحة على الفشل الذي عانت منه الطبقة العاملة حتى الآن. فهذا العجز تجاه الغنى المتزايد للمجتمع هو الذي قاد حركة الطبقة العامـة إلى التحجر والجمود ، لهذا بدا لم يعد لديها ما تطالب به بعد حصولها على التلفزيون والدراجة النارية والبراد وسيارة الفولكس فاجن .

في الختام أود أن أضع امكانات الطبقة العاملة الاوروبية الغربية في اطار آخر هو انعكاس التطورات الدولية على الوضع في قارتنا .

يجب أن لاننسى أننا ناضلنا في السنوات الخمس عشرة الاخيرة في ظروف دولية بالغة التعقيد . فقد كانت القوى الاشتراكية الواعية عندنا مضطرة إلى اتخاذ مواقف دفاعية بسبب انعكاسات الحرب الباردة علينا ، وبفعل الضعف الاقتصادي والسياسي للبلدان الاشتراكية ، والاستقرار المؤقت والازدهار الاقتصادي الهائل للرأسمالية في الغرب . لقد كانت غالبية الشعب في المانيا الغربية مثلاً مقتنعة بأن نظامها وحكومتها قد قدما لها كفايتها من الخبز والرفاه ، وانه يجب عليها الدفاع عن نفسها ضد الخطر الذي يهدد من الشرق أمنها ومابقي لها من حريات ديمقراطية . هذا الجو صعّب على مستوى أوروبا الغربية بكاملها أي تقدم كبير في الوعي الاشتراكي لجماهير العمال . أما اليوم فقد بدأت الصورة تتغير لاسباب عدة أولها اختفاء تلك الممارسات التي كانت تنفر غالبية عمال أوروبا الغربية من الدول الاشتراكية . قد يكون للانفراج الدولي الذي حدث

في السنوات الأخيرة دوراً في هذا التغير ، ولكنني على ثقة من أنه كان سيحدث حتى بدون هذا الانفراج .

٢) إن خطر الحرب الذرية، الذي سيظل ماثلاً ما دامت الرأسمالية قائمة في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية ، هو حليف قوي لنا . إننا لم نستغل هذه الحجة حتى الآن لمصلحة الاشتراكية ، بل عالجنا مشكلة الكفاح ضد الخطر الذري من وجهة نظر آنية ومباشرة فقط ، فاقتصر نضالنا على القنبلة الذرية دون أن نربطها بالنظام الاجتماعي القائم . إن علينا الآن أن نطور موقفنا ، وأن نحاول ربط الخطر الذري بوجود الرأسمالية . فبذلك تصبح مسألة التحويل الاشتراكي في الغرب مسألة حياة أو موت بالنسبة للانسانية جمعاء . إن التركيز على أن الخطر الذري لن يختفي إلا في عالم اشتراكي فقط ، سيجعلنا نحقق تقدماً كبيراً في وعي الجماهير الاشتراكي .

٣) إن لدينا حليفاً هائلاً وعملاقاً في العالم ، حليف يبلغ تعداد جيوشه اكثر من ملياري انسان هم جماهير البلدان ضعيفة التطور ، البلدان التي لاتعيش فاقة مروعة فحسب ، بل وتؤمن أيماناً حازماً بالكفاح ضد الفقر وضد المجتمع الذي ينتجه .

وليس هناك من قوة سياسية أو عسكرية تستطيع ايقاف هذه الحركة الثورية التي تشمل ثلاث الى اربع قارات ، وتتسدفع نحو النصر . وإن ثوار فيتنام يعطون اليوم مثالاً بطولياً فريداً بكفاحهم ضد القوة العسكرية الأولى للعالم ، مع أنهم يقاتلون منذ اكثر من عشرين عاماً دون توقف .

ان على الاشتراكيين في غرب أوروبا أن يتعرفوا على هذا الحليف ، وان يعبروا عن تضامنهم معه في جميع أعمالهم السياسية ، لأن ذلك سيرشدهم الى

إمكانات نضالية جديدة ومدهشة . وقد قام به الطلبة والمثقفون الاميركان خلال الأسابيع الأخيرة بمبادرة أدت الى تطوير وعيهم وروحهم النضالية كما لم ينتظر انسان في أوروبا الغربية [1] .

حين يراعي المرء العوامل الدولية المساعدة لنضالنا الاشتراكي ، ويضعها في اطار نضال حازم من أجل أوروبا وعالم اشتراكيين ، فانه يستطيع القول أن عوامل الصراع وفرص النجاح لن تنقصنا في السنوات المقبلة .

---

(١) قام أساتذة الجامعات الامريكية وطلابها بعقد مناقشات احتجاج على الحرب الفيتنامية استمرت مائة ساعة . تلك كانت طريقة مبتكرة لتطوير الوعي التقدمي في الولايات المتحدة الامريكية .

– ماندل –

العلاقات الاقتصادية الخارجية للعالم العربي
لماذا لا توضع في خدمة التنمية والمعركة؟

يحيى عرودكي

ان التقدم العلمي والتقني الذي بات يسيطر على الكثير من وسائل التقدم الحضاري والذي بمقتضاه اختصرت المسافات وتضاءلت الأبعاد بين أرجاء العالم ، وتشابكت ، تبعاً لذلك ، مصالح الدول ، وتداخلت منافعها بعضها ببعض ، ان هذا التقدم ، قد أبرز أكثر من أي وقت مضى أهمية تنظيم العلاقات الدولية ، وبصورة خاصة العلاقات الاقتصادية ، باعتبارها السبيل الأوسع والأيسر سلوكاً ، والأقدر على التكيف والتأثير في مصالح الدول ، تبعاً لما تتوخاه كل منها من وراء هذا التنظيم .

وقد يكون من نافلة القول ، الاشارة الى الدور الذي لعبته العلاقات الاقتصادية في اقامة الدول الاستعمارية ، وفي امتداد سلطانها الى أقاصي الشرق والغرب ، ثم الى الدور الذي تمارسه هذه الدول في العصر الحاضر من خلال مثل هذه العلاقات في فرض ارادتها ، وممارسة عملية الاستغلال والاستثمار لثروات الدول الأخرى ، وجعلها تعيش في تبعية أقرب الى الاستعمار منها الى الاستقلال المعلن باسمها . واذا كانت الصفة السياسية تغلف عادة علاقات الدول بعضها مع بعض ، فان الطابع الاقتصادي لهذه العلاقات ، غالباً ما يتقدم تلك الصفة ، أو يعطيها ظلاً في أحيان عديدة ، أو يكون بمثابة الوعاء لها .

وبالقدر الذي تؤدي معه العلاقات الاقتصادية الدولية الدور الكبير في تحقيق مصالح الدول ومنافعها من ورائها ، فهي تحتاج الى الفهم العميق ، والتصرف الدقيق ، والتوجيه المحكم ، والادارة الواعية ، والتخطيط السليم الذي يتيح بلوغ تلك الأهداف .

والبلدان العربية ، بما أتيح لها من الموقع الجغرافي والستراتيجي الممتاز بين ثلاث من القارات الكبرى بين الخليج والمحيط ، وبما لها من حضارة زاهرة وتاريخ حافل بالأمجاد ، وبما تملكه من الثروات والإمكانات وفي مقدمتها النفط ، وبما تتطلع اليه دوماً من الرغبة في التحرر والوحدة والمساهمة مع الدول الراغبة في اقامة عالم تسوده المحبة والرفاه ، وتسيطر عليه في علاقاته مبـــادىء العدالة والمساواة ، يمكنها أن تؤدي عن طريق اعادة النظر في علاقاتها مع البلدان الأخرى ، وخاصة العلاقات الاقتصادية ، دوراً على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لمستقبل التقدم والنمو لدى أقطارها ، ولدعم مسيرتها في مواجهة العدوان الاستعماري الصهيوني على أراضيها ، وكذلك بالنسبة لعملية التحرر من التخلف والتبعية التي تعيشها بلدان العالم الثالث ، وبالنسبة للجهود التي تبذلها المجموعة الدولية في تحقيق السلام والرفاه والتقدم للمجموعة البشرية في شتى أنحاء العالم .

وما من شك في أن إعادة النظر في علاقات العالم العربي الاقتصادية بالبلدان والدول الأخرى ، وبالأحرى إعادة تقييم هذه العلاقات وتطويرها بغية بلوغ تلك الأهداف ، انما يتطلب تحديد الأرضية التي تقوم عليها هذه العلاقات في الوقت الحاضر ، وبيان الأبعاد التي تمكنت من الوصول اليها ، ومعرفة الغـــايات التي استهدفتها من ذلك ، ثم تحليل النتائج التي حققتها في هذا المجال ، حتى تتاح معرفة السبل الجديدة التي يجب اتباعها في تحريك تلك العلاقات وتوجيهها والسير بها نحو ما يحقق الأهداف المرجوة منها .

وما من شك أيضاً أن تحديد الأرضية التي تبنى عليها مثل هـذه العلاقات إنما يستدعي تبيان الأنواع والأشكال والسبل المعتمدة في الوقت الحاضر في هذا الصدد ، ويأتي في مقدمتها : المبادلات التجارية ، التعاون الاقتصادي والعلمي والفني ،

السياحة ، الاستثمارات والقروض ، النقل والمواصلات ، المشاريع المشتركة ، التمثيل التجاري ، الاتفاقات الدولية ، المنظمات والتكتلات الاقتصادية ، ويستتبع هذا التبيان ، بل يتطلب البحث عن كل من هذه الأشكال والأنواع والسبل ، الإشارة للعلامات والمميزات التي يتسم بها الاقتصاد العربي ككل ، واقتصاديات كل من الأقطار العربية ، التي لها مايميزها عن غيرها من الأقطار العربية الأخرى. ويأتي في مقدمة ذلك الآتي :

● ● تصنف الإقتصاديات العربية في زمرة إقتصاديات البلدان النامية لأن بلدانها مازالت تعاني من مشكلات التخلف ، ومن إنخفاض معدلات دخولها القومية ، وتدني مستوى معيشة سكانها ، ومن عدم إتساع القطاعات الصناعية لديها وبطء تطورها ، وغير ذلك من الظواهر الأخرى في هذا المجال .

● ● إن توزيع القوة البشرية لايتفق وتوزيع الثروات الطبيعية والمساحات الصالحة للاستثمار الزراعي في أرجاء الوطن العربي ، بالاضافة الى سوء التوزيع في مصادر وممرات المياه ، وفي رؤوس الأموال وغير ذلك من عوامل الانتاج الأخرى .

● ● إن جميع الأقطار العربية يهمها تطوير اقتصادياتها ، وتجاوز مرحلة التخلف ، وإن معظمها قد باشر الأخذ بخطط إنمائية بهذا الصدد ، ولكن هذه الخطط لايربط بينها أي رابط من التنسيق أو التكامل بما يجعلها في أحيان كثيرة تبدو وكأنها وضعت بالأصل في مواجهة بعضها البعض ، مما يقلل من الفوائد المرجوة منها ، إن لم يقلب هذه الفوائد الى أضرار تصيب مختلف الفرقاء على المدى البعيد .

● إن معظم اقتصاديات البلدان العربية ، إن لم تكن بكاملها ، هي

إقتصاديات تعيش في ظل التبعية لاقتصاديات الدول المتقدمة صناعياً ،وهي بذلك تتأثر الى حد بعيد بالتدابير والمحاولات التي تعمل هذه الدول بموجبها لإبقاء هذه التبعية الى أطول مدة ، والى زيادة حدتها .

● ● إن توفر النفط لدى عدد من الأقطار العربية ،وقيام الاحتكارات البترولية باستثمار هذه الثروة في معظم هذه الأقطار ، قد أوجد بين البلدان المذكورة والبلدان التي تعود لها هذه الاحتكارات علاقات من نوع خاص وعلى قدر كبير من الأهمية ، بالنسبة لاقتصاديات كل من هذه الأطراف .

● ● إن كون الاقتصاديات العربية من الاقتصاديات المتخلفة ، قد جعل بالضرورة الأقطار العربية تتجه الى إستيراد حاجاتها من مختلف السلع والمنتجات التي لاتتوفر لديها من مختلف بلدان العالم ، وبالتالي فان ازدياد حجم مستورداتها وتوزعها جغرافياً على نطاق واسع قد أتاح لها علاقات وثيقة مع تلك البلدان ، تتيح لها مزيداً من الحركة والعمل بما يتفق والمصلحة العربية .

● ● إن غنى بعض الأقطار العربية ووجود فائض من رؤوس الأموال لديها ، قد فتح أعين الشركات والمصارف في بلدان أوربا وأمريكا للحصول على هذه الودائع والاستفادة منها واستثمارها حيث تحقق الأرباح التي تطمع فيها .

ومن ناحية أخرى فإن فقر بعض الاقطار العربية وتطلعها الى تطوير حياتها الاجتماعية والاقتصادية يضطرها للاتجاه نحو البلدان الأخرى للحصول على القروض والأموال اللازمة التي تحتاج اليها في عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

● ● أدى وقوع بعض الأقطار العربية ، وخاصة بلدان شمال

أفريقية ، تحت الاستعمار الأجنبي فترة طويلة من الزمن، ثم تحررها في الخمسينيات من هذا القرن وما بعدها ، الى قيام علاقات اقتصادية من نوع خاص بين هـذه الأقطار والدول الاستعمارية ، بشكل أصبح معه من الضرورة بمكان إيجاد بديل عن هذه العلاقات حتى تستكمل تلك الأقطار استقلالها، كما أصبح يتطلب تكييف تلك العلاقات وتطويرها وجعلها في خدمة الاقتصاديات العربية بصورة خاصة ، في النطاق الذي يتعذر فيه إيجاد البديل .

هذه العلامات والمميزات التي تتسم بها الاقتصاديات العربية ككل ، أو يتسم بها بعضها ، تطرح العديد من نقاط البحث حول واقع العلاقات الاقتصادية الخارجية للعالم العربي ، ومدى الدور الذي مارسته هـذه العلاقات في تطوير الاقتصاديات العربية ونموها ، وكذلك في الإسهام بعملية المواجهة والصمود مع العدو الصهيوني والقوى الاستعمارية ، المساندة له . ثم مايمكن أن يحققه تنظيم وتنسيق مثل هذه العلاقات على مستوى الوطن العربي الكبير من فوائد ، وما ينتج من إمكانات واسعة في دعم قضية التحرر والوحدة بين أجزاء هذا الوطن ، وبالتالي بيان السبل والأشكال التي يمكن عن طريقها تحقيق مثل ذلك التنظيم والتنسيق .

أولا — اطار العلاقات الاقتصادية الخارجية :

بتطور العلاقات والصلات بين الأمم في مختلف أرجاء العالم نتيجة تطور وتقدم سبل وسائل المواصلات والنقل ، ونتيجة ماتحقق في نطاق العلوم والفنون من انجازات علمية وفنية وتقنية ، وما بات يفرضه هذا التطور والتقدم في تلك الانجازات من الحاجة لتوفير المواد الأساسية والضرورية ومن الخبرات العلمية

والفنية ، ثم من توفير الأسواق اللازمة لتصريف الانتاج العظيم الذي تحقق نتيجة لذلك ، وما تتطلبه مثل هذه العمليات من مختلف الخدمات سواء مايقع منها في نطاق التمويل أو التأمين أو النقل أو غير ذلك من النشاطات الأخرى . كل ذلك وغيره قد أدى ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، الى اتساع رقعـــة وأشكال وصور العلاقات الاقتصادية الخارجية لمختلف بلدان العالم ومنها بلدان العالم العربي ، وكذلك الى تداخل هذه العلاقات وتشابكها مع العلاقات السياسية ، حتى لتكاد أن تحل الواحدة منها محل الأخرى في بعض الأحيان، وحتى لتكاد تنطلق احداهما مع بلد من البلدان تبعاً لقيام العلاقات الثانية معه . فكثيراً ماحفل التاريخ بأنباء البدء باقامة علاقات تجارية بين بلدين قبل قيام أية علاقات سياسية بينها ، وبأخبار الاقتصار على بقـاء مثل تلك العلاقات التجارية في ظروف قطعت فيها العلاقات السياسية بين دولتين . وقد تتطور هذه العلاقات وتتجاوز حدود المبادلات التجارية الى نطاق علاقات اقتصادية أوسع ، لتشمل التعاون الاقتصادي والفني ، وشؤون النقل والترانزيت ، واقامة المشاريع المشتركة ، وقضايا التمويل والاستثمارات والتأمين ، والسياحة ، واقامة المعارض ، وتنسيق الخطط الانمائية والاقتصادية ، والتعاون في المؤتمرات وداخل التكتلات والتجمعات الاقتصادية ، وغير ذلك من وجوه العلاقات المتقدمة الذكر .

ويبقى امتداد كل من أنواع هذه العلاقات أو بعض منهـــا أو جميعها ، واتساعه متبايناً بين بلد وآخر أو بين مجموعة من البلدان ومجموعة أخرى ، وذلك تبعاً لعدد من العوامل والظروف التي تحكم حياة هذه البلاد ، ودرجـــة النمو والتقدم ، أو تبعاً للمقومات الطبيعية والمكتسبة التي تتوفر لديها أو غير ذلك من الأحوال والاعتبارات الأخرى التي لها دورها وأهميتها في قيـــام وانعدام هذه العلاقات ، أو في نموها وتقلصها بين العديد من البلدان ومن حين لآخر .

ثانياً — واقع العلاقات الاقتصادية الخارجية العربية :

قبل البحث في تفصيل هذه العلاقات ، فإنه من المفيد الاشارة إلى أبرز سماتها :

● إن العلاقات الاقتصادية بين الدول العربية بعضها ببعض ليست كلها على مستوى واحد من النمو والتكامل والتنسيق ، وما هو قائم بين دولتين عربيتين ليس هو نفسه أو ، مثلاً له مايقوم بين احداهما ودولة عربية ثالثة .

● وتقوم تلك العلاقات في كثير من جوانبها على أحكام الاتفاقات الثنائية ، أما الاتفاقات الجماعية فتنظم بعض جوانبها الأخرى ، كاتفاقية تسهيل التبادل التجاري وتنظيم الترانزيت المعقودة في نطاق جامعة الدول العربية منذ عام ١٩٦٢ ، واتفاقات اخرى تتعلق بتنسيق السياسات البترولية ، وتوحيد المواصفات والمقاييس وغيرها .

● ومن الطبيعي في ضوء واقع العلاقات الاقتصادية بين الدول العربية نفسها أن تكون علاقات هـذه الدول الاقتصادية مع العالم الخارجي مختلفة الاشكال ، متباينة الاتجاهات ، ومتعددة الأسس التي تقوم بموجبها .

● وهي تبعاً لذلك لاتقتصر على نوع من العلاقات الاقتصادية ، بل ربما شملت لدى بعض البلدان العربية كالجمهورية العربيـة المتحدة مختلف هذه الأنواع ، ولربما اقتصرت لدى بعض هذه البلدان كالجمهورية اليمنية مثلاً على بعض تلك العلاقات . ولكن عمليات التبادل التجاري تأتي دوماً في المقدمة .

● وهي أيضاً لاتقتصر في امتدادها على بلدان غربيـة أو شرقية ، أو متقدمة أو نامية ، وإنما نجد لأكثر البلدان العربية علاقات اقتصادية ، وبصورة

خاصة تجارية ، مع العديد من بلدان العالم على اختلاف عقائده وسياساته ودرجات تطوره ونموه .

• ومن الملاحظ أن لأكثر من بلد عربي علاقات اقتصادية وتجارية مع بلد أجنبي واحد ، انما تختلف سعة وعمق هذه العلاقات معه بين كل من هذه البلدان ، كالعلاقات التي تربط العربية السورية والعربية المتحدة والعراق واليمن والجزائر بالاتحاد السوفياتي مثلا ، أو كتلك التي تربط فرنسا بعدد من البلدان العربية في افريقيا وآسيا .

• ثم إنه من الملاحظ أيضاً أن جميع الأقطار العربية هي أعضاء في هيئة الامم المتحدة وبالهيئات والمنظمات الاقتصادية والمالية المتفرعة عنها ، كالمجلس الاقتصادي والاجتماعي ، ومجلس التجارة والتنمية الدولية ، والصندوق الدولي وبنك الانشاء والتعمير ، ومنظمة الأغذية العالمية ، ومنظمة العمل الدولية وغيرها .

• وبالاضافة الى ماتقدم ، فإن وقوع معظم الاقطار العربية في نقاط استراتيجية وعلى ممرات دولية ، بحيث تشكل عمليات العبور للبضائع ووسائل النقل الجوية والبرية والبحرية ، وكذلك الأشخاص ، هو احدى أشكال العلاقات الاقتصادية الهامة مع العالم الخارجي التي لايمكنه الاستغناء عنها ، بما تتيحه له من امكانات الاتصال بانحاء العالم الأخرى .

ومع تعدد هذه السمات وما يبدو من الأهمية التي ترتبط بها ، والنتائج التي يمكن أن تحققها الدول العربية بموجبها ، في دعم وتنمية وتطوير أوضاعها الاقتصادية ، والحصول على فوائد اكثر مما يتوفر لها في الوقت الحاضر ، فإن هذه العلاقات لم تستطع أن تلعب مثل هذا الدور حتى الآن نتيجة التجزئة التي

تعاني منها الأمة العربية ، ونتيجة فقدان التنسيق والتعاون فيما بينها في توجيه هذه العلاقات نحو المصلحة العربية المشتركة ، بدلاً من توجيهها نحو المصالح القطرية المختلفة .

١ – فعلى صعيد المبادلات التجارية ، فإن الموازين التجارية لهذه الأقطار تعاني من عجز مستمر ، حتى بالنسبة لتلك التي تملك ثروات بترولية ، في حال عدم ادخال قيمة النفط المصدر ضمن قيمة صادراتها من المنتجات الأخرى ، على اعتبار أن هذا النفط يصدر لحساب الشركات الأجنبية المستثمرة له بمعظمه ، وأن هذه الأقطار تحصل على عائدات منها فقط . وقد بلغ هذا العجز عام ١٩٦٦ نحو ٣٢٣٢ مليون دولار في حين بلغ عام ١٩٦٧ نحو (٢٦٧٧) مليون دولار كما يوضح ذلك الجدول رقم (١) على الصفحة التالية . أما في حال اضافة قيمة النفط المصدر ، فان هذا العجز يصبح في حدود (٦٩٠) مليون دولار عام ١٩٦٦ وفي حدود (٣٨٢) مليون دولار عام ١٩٦٧ ، كما هو مبين في الجدول رقم (٢) في الصفحة التالية .

الجدول رقم (١) خاص بالمبادلات التجارية بدون قيمة النفط المصدر

البلدان	١٩٦٦ الصادرات	١٩٦٦ المستوردات	١٩٦٦ الميزان	١٩٦٧ الصادرات	١٩٦٧ المستوردات	١٩٦٧ الميزان
الأردن	٢٩	١٩١	١٦٢-	٣٢	١٥٤	١٢٢-
العراق	٧٤	٤٩٣	٤١٩-	٦٧	٤٢٣	٣٥٦-
العربية السورية	١٧٣	٢٨٨	١١٥-	١٥٥	٢٦٤	١٠٩-
لبنان	١٠٣	٥٣٣	٤٣٠-	١١٩	٤٧١	٣٥٢-
السعودية	٣	٤٤٢	٤٣٩-	٢٥	٥٠٨	٤٨٣-
الكويت	٣٩	٤٥٤	٤١٥-	٤٢	٥٩٤	٥٥٢-
اليمن الجنوبي	١٢٤	٢٨٠	١٥٦-	١٣٠	٢٨٩	١٥٩-
العربية المتحدة	٥٩٩	١٠٧٠	٤٧١-	٥٥٧	٧٩٢	٢٣٥-
ليبيا	١٢	٤٠٥	٣٩٣-	١٢	٤٧٧	٤٦٥-
تونس	١٤٠	٢٤٩	١٠٩-	١٤٩	٢٦٠	١١١-
الجزائر	٦٣	١٥٥	٩٨-	٥٣	١٥٥	١١١-
المغرب	١١٠	١٢٢	١٢-	١٠٩	١٣٢	٢٣-
السودان	٣٠٤	٢٢٢	٨٢+	٢١٥	٢١٣	٢+
المجموع	١٦٧٢	٤٩٠٤	٣٢٣٢-	١٦٦٥	٤٧٣٢	٣٦٧٧-

الجدول رقم (٢) خاص بالمبادلات التجارية مع قيمة النفط المصدر

البلدان	١٩٦٦ الصادرات	١٩٦٦ المستوردات	١٩٦٦ الميزان	١٩٦٧ الصادرات	١٩٦٧ المستوردات	١٩٦٧ الميزان
العراق	٩٣٩	٤٩٣	٤٤٦+	٨٣٥	٤٢٣	٤١٢+
سعودية	٣٠٨	٤٤٢	١٣٤-	٣٤٥	٥٠٨	١٦٣-
الكويت	٣٣٩	٤٥٤	١١٥-	٣١٠	٥٩٤	٢٤٤-
ليبيا	٩٩٥	٤٠٥	٥٩٠+	١١٧٨	٤٧٧	٧٠١+
الجزائر	١٥١	١٥٥	٤-	١٧٦	١٥٥	٢١+
بقية البلدان العربية	١٤٨٢	٢٩٥٥	١٤٧٣-	١٤٦٦	٢٥٧٥	١١٠٩-
المجموع	٤٢١٤	٤٩٠٤	٦٩٠-	٤٣٥٠	٤٧٣٢	٣٨٢-

ومن ناحية أخرى ، فانه يلاحظ أن هذه الاقطار تعتمد في صادراتها على أنواع محدودة من السلع والمنتجات كالنفط والقطن والحنطة والفوسفات والحمضيات وتشكل المواد الخام منها اكثر من نصف مجموع الصادرات العربية ، وتبلغ لدى بعض الاقطار المذكورة اكثر من ٩٠ ٪ كما هو الحال لدى كل من السعودية وليبيا في حين ان المستوردات العربية تتشكل بمعظمها من السلع والبضائع التامة الصنع ، وتشكل المنتجات الخام جانباً محدوداً من هذه المستوردات . ومثل هذا التركيب السلعي من شأنه ان يتيح مزيداً من استنزاف مواد وخيرات البلدان العربية من قبل الدول المتقدمة صناعياً ، نتيجة تحكمها بالاسواق الدولية، وفرضها أسعاراً منخفضة لمستورداتها من المنتجات الخام التي تصدرها البلدان النامية، ومنها البلدان العربية ، وأسعاراً عالية لصادراتها من السلع والبضائع التامة الصنع أو نصف المصنوعة الى هذه البلدان .

ومن ناحية ثالثة ، فإن التوزيع الجغرافي للمبادلات التجارية للعديد من الدول العربية وخصوصاً تلك المصدرة للنفط ، يظهر بوضوح أن معظم صادرات هذه البلدان يكاد ينحصر بعدد محدود من الدول في اوربا وأمريكا بالاضافة الى اليابان في آسيا ، وأن هذه الدول بما لديها من الاحتكارات الواسعة تجعل من امكانية تحرك كل من البلدان العربية في علاقاتها التجارية والاقتصادية مع العالم الخارجي يصطدم ببعض العقبات .

٢ – وعلى صعيد التعاون الاقتصادي والفني ، فان كلاً من الاقطار العربية قد عمد الى الحصول على جانب من حاجاته من المعونة الاقتصادية والفنية من دولة أو اكثر من الدول الأجنبية ، بموجب اتفاقات عقدها لهذه الغـايـة ، تفاوتت بينها الشروط والمعاملة تبعاً لتعدد المصالح والظروف التي عقدت في ظلها،

بشكل ظهرت معه التناقضات التي يسببها واقع التجزئة بين هذه الأقطار ، سواء من حيث ازدياد الأعباء التي يتحملها الاقتصاد القومي ، أو الالتزامات سوف تزداد ويتفاقم خطرها ، اذا ما بقي الحال على ماهو عليه ، لأن الاقطار العربية، بحكم تطلعاتها لتحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية فيها للتخلص من التخلف الذي تعاني من شروره ، فإنها مضطرة للحصول على المعونات الاقتصادية والفنية من الخارج. ولأن الدول الاجنبية المتقدمة اقتصادياً التي يمكنها تقديم مثل هذه المعونات ، تستغل ذلك الواقع ، وبامكانها أن تكون في موقف المساوم الاقوى تجاه كل دولة عربية على انفراد .

٣ - وعلى صعيد الاستثمارات والتمويل ، فإن عدم استثمار الموارد والثروات الطبيعية من جهة في الأقطار العربية ، وتوفر المجالات العديدة والواسعة فيها لاقامة العديد من المشروعات الانشائية والصناعية وغيرها من جهة ثانية ، قد فتح الباب أمام تلك المشروعات ، وخصوصاً خلال الفترة التي سبقت حصول بعض هذه الاقطار على استقلالها ، حيث أتاح لها الحكم القائم آنذاك فرصاً رائعة لممارسة نشاطاتها والحصول على الوفير من الأرباح ، سواء عن طريق المصارف أو شركات التأمين أو شركات النقل والوكالات التجارية والمنشآت الصناعية وغيرها .

واذا كانت بعض الأقطار العربية ، قد استطاعت انهاء عهد مثل هذه الاحتكارات عن طريق ما اتخذته من اجراءات التأميم ، كما جرى في العربية السورية والمتحدة مثلاً ، فإن أقطاراً أخرى ما زالت قائمة فيها حتى الآن . وبنفس الوقت فإن هناك الكثير من الاستثمارات والأموال العربية التي تبحث عن المجالات اللازمة لها للتوظيف في البلدان الأجنبية ، ولا تتحقق لها الشروط الملائمة لنشاطها .

ولا ينتظر أن يتبدل حال تلك أو هذه في اطار الظروف والواقع الذي يجثم على هذه الأقطار . ما دامت الأولى بحاجة الى الاستثمارات والأموال ، لبقاء

واستمرار النشاط الاقتصادي فيها وتطويره وتنميته ، وما دامت الثانية لا تقوى على اتخاذ موقف القوي ، طالما أنها تتهالك على المؤسسات الاستثمارية الأجنبية بدافع الثقة أو الأمان ، متناسية أن هذه الجهات تعيد تثمير أموالها في البلدان العربية نفسها .

٤ - وعلى صعيد السياحة ، فان غنى الأرض العربية على امتدادها من الخليج إلى المحيط ، بالآثار الثمينة ، والمناظر الرائعة ، والمناخ الطيب ، والشواطىء الواسعة المشرقة ، بالاضافة الى التراث والتقاليد الشيقة ، واعتدال الأسعار بالنسبة لما هي عليه في البلدان الأخرى ، كل ذلك وغيره يجعل من الأقطار العربية الدوحة الجيدة لاجتذاب السياح والارتقاء بصناعة السياحة الى المستوى الذي يجعلها مصدراً هاماً من مصادر الدخل القومي ، وموردآ من موارد العملات الأجنبية ، بالاضافة الى الفوائد الأخرى الاعلامية والثقافية والحضارية لهذه الاقطار .

وعلى الرغم مما حققته بعض الدول العربية ، كالجمهورية اللبنانية ، والعربية المتحدة وتونس والمغرب من نجاحات في مضمار تطوير السياحة لديها ، فإن ذلك لا يعدو شيئاً محدوداً مما يجب أن يتحقق في مضمار تطوير السياحة لديها ، ولا يعدو شيئاً محدوداً مما يجب أن يتحقق في هذه الأقطار وبقية البلدان العربية الأخرى في هذا المجال .

وما استطاعت أن تفعله اسرائيل في المجال المذكور ، وما حققته من نجاح في اطاره جدير بأن يفتح عيون الدول العربية على حقيقة هذا القطاع لديها ، وعلى أهميته في علاقاتها الاقتصادية الخارجية .

٥ - وعلى صعيد التكتلات الاقتصادية الدولية ، فإن النزوع نحو اقامة مثل هذه المجموعات الاقتصادية في أجزاء عديدة من العالم في تزايد مستمر تبعاً للعديد من الاعتبارات الاقتصادية والسياسية والدولية التي يشهدها العالم

اليوم . وغير خاف ما تهدف اليه مثل هذه التكتلات من حماية مصالح أعضائها والحصول على أكبر نفع لهم بمواجهة البلدان الأخرى . والسوق الأوربية المشتركة ، ومنطقة التجارة الحرة ، ومنظمة (الكوميكون) بين البلدان الاشتراكية ، والسوق المشتركة لأمريكا اللاتينية ، والسوق المشتركة لبلدان غرب أفريقيا ، وأختها لبلدان شرق أفريقيا وغيرها ، كلها وجه من وجوه هذه التكتلات . وقد جاء انشاء السوق العربية المشتركة بين عدد من الأقطار العربية منذ مطلع عام ١٩٦٥ ليبعث التفاؤل في امكان وقوف هذه السوق على مستوى مماثل لتلك التكتلات . إلا أنه حتى الآن والى فترة ، قد تطول أو تقصر تبعاً لمدى نجاح وتقدم السوق المذكورة ، فان علاقات الدول العربية مع التكتلات الاقتصادية الدولية تجري من خلال التعامل القطري ، سواء من حيث التبادل التجاري أو التعاون الاقتصادي والفني أو غير ذلك من النشاطات الاقتصادية الأخرى معها ، أو من حيث الارتباط بها وتحديد الفوائد والمنافع المتبادلة بينها. وهذا بلا شك ، قد جعل موقف الدول العربية ضعيفاً ، ومشوباً بالتخاذل ، أكثر مما يتسم بالحرية في رسم هذه العلاقات .

٦ - **وعلى صعيد الاتفاقات التجارية الدولية** ، فإن كلاً من الدول يرتبط مع عدد من الدول الأجنبية باتفاقات لتنظيم مبادلاته التجارية معها . وتتفاوت نصوص وأحكام هذه الاتفاقات ، من حيث الميزات التي يمنحها كل بلد للبلد الآخر ، ولكنها على اختلافها تنطلق من النظرة الاقليمية ، المتمثلة بالرغبة على الحفاظ على مصالح كل من هذه الدول بمعزل عن مصالح الدول العربية الأخرى . إن لم تتضمن نصوصاً من شأنها تأكيد المزاحمة بين المنتجات المماثلة في الدول المذكورة . يضاف الى ذلك ، ما يقوم به جهاز التمثيل لكل من هذه الدول وفروعه في البلدان الأجنبية ، من العمل الفردي في مجال البحث عن الأسواق الخارجية لمنتجات البلد الذي يمثله ، بعيداً عن أي تعاون أو تنسيق مع

الأجهزة التجارية الممثلة للدول العربية الأخرى ودون تحاشي الوقوع في أخطاء المزاحمة المشار اليها آنفاً .

وتبعاً لتماثل الأوضاع الاقتصادية العربية ، ووجود انتاج متماثل تقريباً لدى أكثر من بلد عربي ، فان توحيد السياسات التسويقية وتنسيقها بين هذه البلدان ، سواء من خلال الاتفاقات التجارية التي تعقدها مع البلدان الأجنبية ، أو من خلال نشاطات مكاتب التمثيل التجاري ، من شأنه أن يقطع الطريق على محاولات الدول الاجنبية في استغلال هذا الواقع من جهة ، وأن يوفر للبلدان العربية الخير والفائدة الجزيلين من جهة ثانية .

فلقد أتاحت حرب الخامس من حزيران ١٩٦٧ الفرصة للاطلاع على مدى أهمية مثل هذا التوحيد والتنسيق ، وتبين كيف أن بعض الأقطار العربية لم تتمكن من أن تحد من علاقاتها التجارية والاقتصادية مع البلدان التي كانت تساند اسرائيل في عدوانها على الأمة العربية . وتجلى بشكل لا يدع مجالاً للشك ، مدى ما يستطيع العالم العربي أن يمارسه من العمل ومن التأثير على مصالح هذه البلدان في أراضيه ليعيدها الى جادة الحق والعدل .

ثالثاً — تنظيم وتنسيق العلاقات الاقتصادية الخارجية للعالم العربي :

في ضوء ما عرضناه من واقع العلاقات الاقتصادية للعالم العربي في أهم فروعها واتجاهاتها ، ومن الانعكاسات التي تتبدى من خلال هذا الواقع ، سواء فيما يتعلق بالآثار السلبية التي تنجم عن أوضاع هذه العلاقات في حالتها الراهنة ، أو سواء ما يتعلق بالنتائج والآثار الايجابية التي يؤدي اليها قيام تنظيم وتنسيق بين الاقطار العربية في هذا الصدد . كان لا بد من بحث السبل وبيان الوسائل التي يمكن بموجبها تجاوز الأحوال السلبية الى الأحوال الايجابية في هذا المجال .

وفي رأينا أن بلوغ ذلك يجب أن يكون منطلقاً من عدد من الاعتبارات

التي تقع في محيط الوطن العربي ، أو في اطار العلاقات الدولية ، أو من القواعد الاقتصادية العلمية ، والتي نوجزها بالآتي :

- التجزئة التي يعيشها العالم العربي ، وما جرته وتجره على الجماهير العربيـة من آلام ومصائب ، سواء على الصعيد الاقتصادي أو الاجتماعي أو على الصعيد السياسي .

- التبعية الاقتصادية التي تفرضها الدول المتقدمـــة صناعياً على البلدان العربية والتي تمتد في بعض منها الى تبعية سياسية .

- ضعف سرعة النمو الاقتصادي في البلدان العربية نتيجة تلك التجزئة وحالة التبعية الآنفتي الذكر .

- تخصص الأقطار العربية بانتاج أنواع محدودة من المواد الخام ، واحتكار الدول المتقدمة صناعياً هذه المنتجات بأسعار منخفضة .

- التقدم التقني والعلمي الذي تعتمد عليه المشاريع المملوكة للدول الأجنبية في البلدان العربية ، ومـــا تحققه من أرباح عالية ، بمواجهة المشاريع المتخصصة العربية التي لم تبلغ هذا المستوى بعد.

- حاجة البلدان العربية الملحة لتحقيق تنمية اجتماعية واقتصادية سريعة ومتوازنة ، وعدم كفاية رأس المال الوطني لدى معظمها لتحقيق متطلبات هذه التنمية .

- توقف سرعة نمو الاقتصاديات العربية على معدل التراكم الذي يتحقق فيها ، وذلك تبعاً لنسبة ماتخصصه من دخلها القومي للاستثمار في انشاء قوى انتاجية جديدة وتطوير القائمة لديها . ثم على اتجاهات هذا التراكم وفيما اذا كانت

تلك القوى تتمثل في صناعات انتاجية أو استهلاكية أو وسيطة وكذلك على مدى كفاءة تنفيذ تلك الاستثمارات .

● ما تواجهه عملية النمو الاقتصادي في البلدان النامية ، ومنها الاقطار العربية ، من عقبات في إطار العلاقات الدولية ، سواء من حيث انقسام العالم لمعسكرين قويين لهما أثرهما ودورهما الكبير في تطور ونمو الاقتصاد العالمي ، بما في ذلك اقتصاد البلدان النامية ، وسواء من حيث اعتماد هذه البلدان على العالم الخارجي من أجل استيراد حاجاتها من بضائع التكوين الرأسمالي والسلع الوسيطة ، وتعلق هذا بقدرتها على تصدير البضائع والخدمات وغيرها لتوفير العملات الاجنبية اللازمة ، أو لاضطرارها الى الاستقراض او الحصول على المعونات الخارجية ومدى قدرتها على سداد هذه الديون وفوائدها .

● سعي الدول الاستعمارية الحثيث لابقاء سيطرتها على البلدان النامية عن طريق الوجه الجديد للاستعمار ، المتمثل بنهب ثرواتها ، عن طريق رفع أسعار البضائع والأموال التي يصدرها لهذه البلدان ، وخفض أسعار منتجاتها من المواد الخام التي يحتاج اليها في صناعاته أو لمتطلباته الاستهلاكية .

هذه الاعتبارات وغيرها لم تعد تترك مجالاً للتردد حول أهمية ، بل ضرورة إقامة القاعدة العريضة والعميقة للاقتصاد القومي في الوطن العربي . إذ كلما أمكن توسيع هذه القاعدة وتعميقها ، كلما أصبح من الميسور اتاحة الفرصة لاغناء الحياة وتنوعها من قبل الجماهير العربية ، وكلما كان هنالك تغيير مستمر في الطرق الفنية للانتاج ، وفي تنوع وتعدد فروعه وتشعبها ، وفي زيادة معدلات نموه ، يصبح من الميسور أمام البلدان العربية أن تزيد من نموها وتقدمها وتطورها الاقتصادي والاجتماعي الى جانب تمكنها من التحرر من التبعية للدول المتقدمة اقتصادياً ،

وحصولها في تعاملها الاقتصادي والتجاري مع هذه الدول على الشروط الملائمة لها .

ولكن اقامة مثل هذه القاعدة في كل من الاقطار العربية يبقى محفوفاً بالعديد من المصاعب والعقبات ، نتيجة ضيق كل منها عن تحمل أعباء ونفقات هذه القاعدة ، وعن استيعاب قدراتها ، وعن توفير حاجاتها من القوى البشرية والموارد الطبيعية ، والامكانات الفنية والعلمية التي تتطلبها .

والاقطار العربية ، تشكل المناخ الملائم لاقامة هذه القاعدة المتماسكة على امتداد الوطن العربي الكبير ، بما أتيح لهـا من الموارد الطبيعية العديدة والمتنوعة ومن الموقع الجغرافي الجيد ، والمناخ الطيب ، والتاريخ والدين والعادات المشتركة بما يجعلها متكاملة بعضها مع بعض . ولهذا كانت الوحدة العربية بينها، السبيل الأمثل ، والشكل الملائم لهذا العمل الكبير . وقيام مثل هذا التكتل ، عدا عن كونه بدهية قومية فهو اقتصادية أيضاً ، مهما كان شكله ، إذ يتيح مواجهة العالم الخارجي بسياسة وعلاقات اقتصادية عربية متناسقة ومنسجمة وقوية لاتفسح مجالاً لاستمرار عملية الاستنزاف والتبعيـة التي تمارسها الدول المتقدمة صناعياً بمواجهة البلدان النامية ومنها العربية . وتحد من ظاهرة تدهور معدلات التبادل التجاري والتذبذبات الحادة لاسعار المواد الخام التي تمارسها تلك الدول لمصلحتها. وبالتالي فإن من شأن الحد من هاتين الظاهرتين المحافظة على أسعار ثابتة نسبياً للصادرات العربية في تلك المواد ، وحصولها على أسعار ثابتة نسبياً للصادرات العربية من تلك المواد ، وحصولها على المزيد من العملات الصعبة التي تحتاجها لتمويل عملية التنمية لديها وتعميق قاعدتها الاقتصادية . ويضاف الى هذا كله أن التكتل المشار اليه يساير في الوقت ذاته ظاهرة التكتلات الاقتصادية التي ينزع العديد من الدول اليها في النصف الثاني من هذا القرن ، نتيجة التطور والتقدم في

العلوم والفنون وفي العديد من وجوه الحياة الحضارية ، و كذلك نتيجةالتطورات السياسية والايديولوجية التي سادت العالم في اعقاب الحرب العالمية الثانية .

واذا كانت الدول العربية ، لقد لبت نداء الجماهير في العمل من اجل تحقيق الوحدة العربية الشاملة ، عن طريق التوقيع على اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية منذ عام ١٩٦٢ ، واقامة السوق العربية المشتركة بين عدد منها ، كمرحلة من مراحل هذه الوحدة ، فإنه لم تتحقق أية خطوات حتى الآن في نطاق توحيد العلاقات الاقتصادية العربية تجاه العالم الخارجي أو تنسيقها ، وهذا يعني استمرار التناقضات التي تواجهها الاقطار المذكورة ، وتزايد الاخطار التي تتعرض لها .

وفي رأينا أن المرحلة الحاضرة التي تمر بها الامة العربية ، والتي تتطلب منها الصمود وتعبئة مختلف طاقاتها وامكاناتها لمواجهة العدو الصهيوني والاستعمار الذي يدعمه ، تفرض على الدول العربية المبادرة الى تنسيق وتنظيم علاقاتها الاقتصادية الخارجية إذا كانت عملية التوحيد متعذرة حالياً ، بما يتلاءم ومتطلبات هذه المرحلة على الأقل . وغني عن البيان أن هناك سبلاً وأشكالاً عديدة لتحقيق مثل هذا التنسيق والتنظيم نورد منها الآتي:

١ - القيام بمسح شامل للعلاقات الاقتصادية الخارجية للدول العربية ، لتحديد مدى إتساع هذه العلاقات وأبعادها وإتجاهاتها ، وتقدير نقاط القوة والضعف فيها بالنسبة لكل من هذه الدول ولمجموعة البلدان العربية .

٢ - القيام بمسح شامل لأهم المنتجات العربية التي تشكل البنود العشرة الاولى من قوائم صادراتها من حيث القيمة والحجم ، للتعرف على الانواع المتماثلة منها لدى مختلف الاقطار العربية ، وتقدير أفضل الأسس والمبادىء التي يقتضي اعتمادها لتحقيق المردود الأفضل لكل من هذه الاقطار .

٣ - القيام بمسح شامل للاتفاقات الاقتصادية والتجارية واتفاقات التعاون الاقتصادي والفني والسياحي التي ترتبط بها الدول العربية مع الدول الاجنبية وتحديد المبادىء والأسس والشروط المتماثلة بين بعضها البعض ، والتعرف على النصوص والأحكام المتباينة فيها ، وتقدير مدى أهمية بقاء استمرار مثل هذا التباين.

٤ - الاتفاق بين الدول العربية ، في ضوء النتائج التي تظهرها عمليات المسح الآنفة الذكر ، على سياسات موحدة أو منسقة ، حول أسعار أية الصادرات العربية المتماثلة ، وحول شؤون تسويقها ، وفيما يتعلق بالحصول على المعونات الاقتصادية الخارجية الفنية والعلمية ، وكذلك فيما يختص بعقد الاتفاقات التجارية والاقتصادية والسياحية والبرامج الملحقة بها ، وبعمليات استيراد المواد الأولية والآلات والتجهيزات اللازمة لعمليات التنمية.

٥ - الاتفاق بين الدول العربية على تنسيق خططها الانتاجية ، وبصورة خاصة بالنسبة للمشاريع التي سوف تقام في كل منها ، بما يؤدي لتكاملها ، ويساعد على التخفيض من تكاليف انشائها وتشغيلها ، ويتيح لها الحد من سيطرة المشاريع الأجنبية ومزاحمتها لها سواء في الأسواق العربية أو الأسواق الخارجية.

٦ - الاتفاق بين الدول العربية على تنسيق العمل بين أجهزة التمثيل التجاري لدى كل منها ، وقيام تعاون مثمر فيما بينها لمصلحة مجموعة الدول المذكورة ولو أدى الأمر الى اتباع شكل من أشكال توزيع المناطق التي تعمل فيها ، أو نمط من أنماط التخصص في المهام المنوطة بها .

سلطان الظلام

جورج سالم

لم يشأ في ذلك المساء أن يأوي في ساعة مبكرة الى غرفته الخاوية ، فقد كان يشعر بغم وحزن لم يتبين سببهما على وجه الدقة . وقدر أن باعث ذلك قد يكون مرده الى موقفه من مديره أو موقف مديره منه . فلقد هاجم الادارة التي يعمل فيها هجوماً عنيفاً أثار دهشة رفقائه وأثار عجبه هو . ولحظ الازورار والخوف في عيون أصدقائه وأحس بملامتهم تفيض من وجوههم . وفكر في نفسه قال : « كيف واتتني الجرأة على ذلك ، أنا الذي لم أقف طوال حياتي هذا الموقف » . وسرعان ما استدرك أنه كان مخلصاً في نقده وهجومه ، وأن أصدقائه كانوا جبناء في مواجهة الحقيقة ؛ فقد دبت الفوضى في المديرية التي يعمل فيها وحظر المدير على موظفيه الكلام ، فرأى أن في ذلك فساداً للعمل ودماراً للمدينة التي يحبها .

وبسبب شعوره ذاك مضى يجوب الشوارع يتأمل واجهات المخازن التي بدا معظمها مغلقاً ، إلا أن أصحابها تركوا الواجهات مضاءة وأقفلوا الأبواب وأسدلوا ستاراً من الحديد أمام الواجهات لايمنع المتفرج من رؤية ما في داخلها .

ومضى على تجواله زمن لا يستطيع أن يقدره ، ثم خطر له أن يمر بمنزل بعض أصدقائه فيسهر عندهم فترة من الليل قبل أن يعود الى غرفته ، وشجعه على ذلك أن يوم الغد عطلة ، وأن رفقاءه من الموظفين لايجدون بأساً في إطالة السهر عشية الأعياد والعطل، فباستطاعتهم أن يأووا الى مضاجعهم حين يشاؤون ، وأن يستيقظوا في الصباح التالي حين يحلو لهم أن يستيقظوا .

إلا أن بيوت رفقائه بعيدة عن هذه الشوارع العامة المضاءة المزدانةحيث كان يتجول ، وكان عليه لكي يصل الى تلك البيوت القائمة في شوارع ضيقة وأزقة مظلمة ، أن يقطع مسافات طويلة . كان قد بدأ يشعر بالتعب فلابد له من أن يركب الباص ، إلا أنه مع ذلك آثر أن يسير على قدميه ، فمايراه من ازدحام في الباص جعله يتجنب ركوبه إلا في حالة الحاجة القصوى .

مضى نحو تلك الشوارع الضيقة . وكان كلما أوغل في السير فيها ، أوغل الليل في نشر ظلامه على تلك الأحياء . ولم يكن يضيء طريقه إلا بصيص من نور ضئيل يتساقط بيخل من بعض المصابيح المتسخة المسمّرة في رؤوس أعمدةخشبية موغلة في العلو .

كان أصدقاؤه كثيرون ، إلا أنه لم يكن ليقصد صديقاً بعينه ، حسبه أن يعثر على أي منهم فيسهر عنده ، وكان مما يسر له ذلك أن بيوتهم متقاربة تكاد تكون متلاصقة في هذا الحي القديم .

وطرق أحد الأبواب ووقف ينتظر ، وطال انتظاره فلم يفتح الباب ، فطرقه مرة أخرى ، ولما لم يفتح هذه المرة تحوّل عنه وسار بضع خطوات ثم توقف عند باب صديق آخر . كانت الأنوار تتسرب من بعض نوافذ الدار ، فأيقن أن صديقه هذا في البيت لا محالة ، ولكنه فوجيء ، حينما طرق الباب ، بصوت امرأة يسأل من خلف الباب .

ـ من ؟

قال بتلعثم :

ـ أنا صديق زوجك . وقد جئت أقضي السهرة هذه الليلة معه .

ثم أضاف بعد قليل ، وأذن المرأة ، فيما قدّر ، ملتصقة بخشب الباب .

ـ هل هو في الدار ؟

أجابه الصوت العميق :

ـ كلا ، فقد ذهب الى السينما ولست أدري متى يعود !

بدأ ينتابه شيء من الضجر ونفاد الصبر ، إلا أنه لم يجد بدأ من متابعة الطريق . وسرعان ما صار الى منزل صديق ثالث . في هذه المرة لمح كذلك أنواراً خافية تتسرب من الخصاص الخشبية ، فقال في نفسه : « عسى أن أجد في الدار أحداً أقضي معه السهرة ...

ولكنه ما ان طرق الباب ، ودوى صوت المطرق الحديدية على مسامير الدار وتردد صدى الطرقات في الليل الموحش الساكن حتى اطفئت الانوار وساد صمت كصمت القبور . وانتظر لحظات طويلة ان يفتح الباب او يسأله سائل من الطارق ، إلا أن الباب لم يصرّ وخشبه لم يسمح لأي صوت انساني بالنفاذ منه .

وظل واقفاً مذهولاً امام الصمت المطبق الذي يرن على الباب وما خلف الباب وعلى الشارع بأكمله .

هم بأن يستدير ويعود أدراجه ليستقبل غرفته الباردة ، ولكن طرفه رنا الى الباب المواجه لهذا الباب ، وقال : « فلنحاول للمرة الأخيرة ! » .

طرق الباب وهو مصمم على العودة ان لم يجد احداً وقد بلغ به الضيق والالم حداً لم يعد بقادر على تحمله .

واخيراً ، فتح الباب من تلقاء نفسه ، ولا سؤال ولا صرير ولا جلبة . ولكن الغريب في الأمر ان الباب انفتح الى الخارج ، على خلاف العادة ، وكاد يرتطم به ، وفي اسرع من خطف البرق وجد نفسه وجهاً لوجه امام جدار أملس لايدري كيف نبت امامه فسد عليه مدخل الدار ، ومد يده يتلمس ما أمامه فاصطدمت يده بحجارة ملساء قوية فحار ولم يدر ماذا يفعل . لم يكن هناك من أمل اذاً . وقال : « ساعود بسرعة الى المنزل ، فقد اتعبني المشي ، وانقضى هزيع طويل من الليل ، ولابد لي من الرجوع الى غرفتي .. »

ترك الباب المفتوح والجدار الأملس أمامه ، وسار في شيء من السرعة في طريق ضيق سيفضي به الى طريق آخر متعرج ، واما قطع هـــذا الطريق وما بعده من طرقات فسيصل الى الشارع العام ، ومنه سيسلك درباً تفضي به الى غرفته الباردة . ومضى يخطى حثيثة لا يلوي على شيء .

كان يسير مسرعاً حين دوت في أذنيه صفارة الحارس الليلي ، فانقبض صدره إلا أنه لم يعرها اهتمامه . فما اكثر ماسمع صوت هذه الصفارات ينطلق في الليل حين يكون عائداً الى منزله بعد سهرة طويلة . ولكنه حين سمع صوت

الصفارة للمرة الثانية وجد نفسه مسوقاً بحركة لا ارادية الى ان يلتفت الى الخلف؛ ورأى من كثب الحارس واقفاً في ناصية الشارع بينما كان الشارع خالياً مقفراً.

وتساءل في نفسه « لماذا يطلق الحارس صفارة هذه ؟ » .

خطا الحارس بضع خطوات فتسمر في مكانه . ماذا يريد مني هــذا الحارس ؟ أيظنني لصاً ؟

إلا أن الحارس تقدم منه في لطف بالغ وتقدير عظيم . وقال له :

– لقد اخطأت الطريق !

وحار في كلام الحارس . من اين يعرفه ، وكيف يعرف انه اخطأ الطريق ، وأي طريق يقصد ؟

كرر الحارس قوله بنبرة لطيفة مهذبة ناعمة :

– لقد اخطأت الطريق !

ثم اشار بيده نحو منعطف جانبي وقال له :

– من هنا ! لا من هناك !

اعترته دهشة ممزوجة بالتمرد . فقال فيما يشبه الصياح :

– ولكن هل تعرفني أنت ؟ وتعرف وجهتي ؟؟

صمت الحارس لحظة ثم هز رأسه بكل أدب وقال :

– أجل . من هنا ! لا من هناك ، فهم في انتظارك ، وما عليك إلا أن تسير في خط مستقيم فتصل في أسرع وقت .

قال الحارس هذا ، ثم أدار له ظهره وسار في الدروب المعتمة .

فكر في نفسه : « من هنا إذاً ! » ، وأضاف : « وأي ضير في ذلك ؟ ان

هذه الدروب كغيرها تفضي الى الشارع العام ، كل ما في الأمر أن المسافة ستطول بعض الشيء ، فالدروب في النهاية تؤدي كلها الى منزلي ».

وهكذا وجد نفسه يسير حيث أومأ اليه الحارس الليلي . كان كل شيء ساكناً والظلمة تكاد تسود المكان . فسمع هديراً لم يتبينه أول الأمر فلم يعره أهمية ، ولم يلبث هذا الهدير أن اشتد تدريجياً ، كان يقوى ويعنف كلما أوغل في الدروب الضيقة . وزكمت أنفه رائحة لاعهد له بها ، واستنشق الهواء مرة ومرة فدهش من رائحة غريبة فيه ما أشبهها برائحة البحر ، وافتر فمه عن ابتسامة ، أين هو في البحر ؟ ومدينته داخلية لانهر فيها ولا بحر ، وجزم بلا تردد أنه مخطىء في احساسه هذا ولكن مابال صوت الهدير يعلو في أذنيه ، اتخدعه أذناه أيضاً ؟ الا أن ماحيّره حقاً هو الرزوجة التي شعر بها ، فقد أخذ يتصبب منه عرق غزير كما لو كان بجانب البحر في ليلة قائظة ، وحين استدار ليخطو آخر خطوة في هذا الدرب الضيق ابتدره رجلان كأنما كانا ينتظران مقدمه . قالا له :

– هاقد وصلت ! لقد أحسسنا بمجيئك ، فقد أرسل في طلبك حيث تقيم ، وحتى الآن لم يعد الرسول الذي كلّف بهذه المهمة . لقد أحسسنا بالمجيء .

فغر فمه مدهوشاً ، وندّت عنه صرخة حاول أن يكتمها :

– ولكن الى أين المجيء ، انني لا أفهم حرفا ؟

قالا له :

– تعال معنا وستفهم كل شيء .

– ولكنني لا اعرفكما ولم أركما قبل الآن .

– ونحن كذلك لانعرفك ولم نرك قط ، ولكن لاأهمية لذلك كله .

واذاً ؟

— ستمضي معنانحو رئيسنا ، فهو الذي كلفنا باصطحابك اليه متى حضرت ، وهناك ستفهم كل شيء .

وقبل أن ينطق بأية كلمة أمسك واحد منهما بيده برفق وسار بينهما .

لاح له البحر من بعيد ، كان بحرا كبيرا أزرق اللون غامق الزرقة . والتمعت في الأفق البعيد أضواء بعض البواخر الصغيرة الراسية في المدى البعيد، فلم يجرؤ على طرح سؤال يتعلق بهذا البحر ، ولكنه سر أن حواسه لم تكن مخطئة فما سمعه من هدير ، وما أحس به من عرق وما زكم أنفه من رائحة كان شيئاحقيقيا ، وكان يحب البحر ، فهدأت أعصابه الثائرة ، والتمعت بعض النجوم في السماء ، فنظر اليها في كثير من البهجة كأنه يراها للمرة الأولى .

وساروا مدة طويلة حتى انتهوا الى باب مبنى يشبه الى حد بعيد قلعة من قلاع القرون الوسطى ، دخل الرجال الثلاثة بهوا معتما وساروا في ممرات طويلة صامتين كأنهم يسيرون في مأتم . نظر حوله فلم يشاهد الا جدرانا ذات صخور قديمة ، ووصلوا أخيرا الى باب يتسرب منه ضوء حاد . طرق الرجلان الباب ، وانتظرا لحظة ان يسمح لهما بالدخول ، ولما سمعا صوتا ، فتحا الباب ودفعابه الى الداخل ، وبقيا في الخارج .

كان أول مارآه وجه موظف يبتسم ببشاشة قال له :

— انني أرحب بك .

قال في شيء من النزق :

— انني لا أفهم شيئا ، ولا أرى داعيا للترحيب بي ، فأنا أريد أن أعود الى منزلي ، الى غرفتي . لم يجبه بشيء ، بل أخرج علبة السكائر ، وقدم له لفافة، ثم أشعلها له . وقال في منتهى الهدوء :

ـ لقد نقل بيتك الى هذا المكان .

ثم اشار بيده الى الشرق وقال له :

ـ ستجد هنالك غرفتك وكل مافيها من ثياب واشياء ، وستجد كذلك كتبك ومذياعك واسطواناتك وآلة التسجيل ، وكل ماتحتاج اليه ، وستوصي على ما تشاء من الطعام والشراب فيأتونك به في الوقت الذي تريد .

ظل صامتا كما لو كان يصغي الى حديث شيق ، ثم قال مستفسرا :

ـ وعملي ؟

أجابه بصوت قاطع :

ـ لقد أصبحت في حل منه بعد الليلة .

وهم أن يسأل ، ودارت في ذهنه عشرات الخواطر ، وقال في نفسه : « لماذا ، وما الغاية من ذلك كله ؟ » ولكنه لم يجرؤ على السؤال ، فقد صدر في ذلك الحين صوت حاد انتزعه من خواطره انتزاعا . كان صوتا قاسيا هو مزيج من الأنين والحشرجة والعواء والنباح ، لم يسمع مثله قط . وارتسمت على وجهه قشعريرة ، وانبعث منه السؤال رغم تجهم وجه الموظف :

ـ ماهذا ؟

قهقه الموظف وهو يهز كتفيه :

ـ لا أهمية لهذا ، فنحن قريبون من المعمل .

ـ وأي معمل هذا ، انني اعرف البلد شبرآ شبرآ ولست أعرف أنهنا معملا .

اقترب منه الرجل محاولاً أن يسري عنه ، قال له :

لاتروع ! فهذا معمل انشىء حديثاً في هذه المنطقة قرب البحر ، وغاية هذا المعمل انتاج جلود الحيوانات ، انهم يحضرون الحيوانات حية أو ميتة اليه ، ثم أشار بيده اشارة ذات مغزى ، ويسلخونها بآلة حديثة صنعت في أحـــدث المصانع ، ويدخلون الحيوان في أحد طرفيها ، وسرعان ماتقوم الآلة بالتحلـق التام حول جسمه ، فتنفصل جلده عن لحمه وعظامه، وتقطع رأسه، وتلقي به بسرعة فائقة في مياه البحر ، ولهذا السبب فانك تسمع بين حين وآخر صوتاً صغيراً ينبعث من هناك ، هو صوت الحيوان عندما يفصل رأسه عن جسمه ، وهذا الصوت لايدوم اكثر من نصف ثانية .

قال له :

- وسأبقى هنا أسمع الأصوات ليل نهار .

أجابه :

- ذاك خير من أن تعمل في المديرية المشؤومة ، أليس كذلك ؟

قال الرجل في اصرار :

- بل أريد أن أعود الى عملي وبيتي الخاوي .

وهزّ الموظف رأسه في حسرة ويأس .

قال الرجل :

- ولكن كيف ترغمني على ذلك ؟ ومن دفعك اليه .

قال الموظف :

- الحقيقة أنني موظف أنفذ ماطلب الي تنفيذه، وقد أمرني رئيسي بذلك، وعليّ أن أقوم بما أمرت به .

قال في لهجة غاضبة عصبيّة :

إذن فسأقابل رئيسك .

- ولكن رئيسي انما يخضع لمديره .

- أقابل المدير إذاً وأرفض الانتقال الى هذا المكان .

قال له الموظف :

- ليس في اليد حيلة ، فالمدير ينفذ أوامر رئيسه .

- فلأذهب الى الرئيس إذاً !

- وهذا ينفذ أوامر مديره المباشر !.

- ليس علي إذن الا أن أحتج لدى المدير المباشر ذاك .

- وهذا بدوره إنما يخضع لأوامر رئيسه .

- ومن رئيس هذا ؟

- المدير .

- ومن يصدر الأوامر الى المدير .

- رئيسه طبعاً .

أهوى الرجل بقبضته على رأسه فهرع الموظف للامساك به وراح يسري عنه :

- لاتبتئس ، ستسعد هنا لاشك في ذلك وستستريح من عناء العمل الى الأبد . بحث الموظف عن الجرس . وسرعان ماضغط عليه بتؤدة ، دخل جنديان طويلا القامة فأشار اليهما الموظف إشارة خاطفة فأديا له التحية . وقال لهما :

- خذاه بحذر الى غرفته فإن أعصابه مرهقة .

واقتاده الجنديان الى غرفته سالكين ممرات طويلة وحين وصلا الى الغرفة كانت قدماه قد تخدرتا من التعب ، فألقيا به على سريره وعادا من حيث أتيا .

نسور الفداء

زكي قنصل
بيونس – آيرس

رفرفي ، رفرفي وهزّي الخواطرْ   وارتعي في قلوبنـــا والضمائرْ
آية السحر في جبينكِ ماجتْ   سلمتْ للعلى رسالةُ ساحر
خشعتْ دونكِ الشموس وطافتْ   حول محرابكِ النجومُ السواهرْ
راية العرب لا تراعي ، فإنّا   قد عقدنا على هواكِ الخناجرْ
طلع الصبحُ فاجتليناكِ نوراً   في الروابي وبسمةً في الأزاهر
إنّ حتّى الحِمى وانتَ مقيمٌ   دون حب الحِمى وانتَ مهاجر
قد حملناكِ خفقةً في الحنايا   ونشيداً على الحنـــاجر ناضر
انتِ والدهرُ توأمـــان سواء   لا إله آخر ولا لـــكِ آخر
البوادي على حفيفكِ مـاستْ   واشرأبتْ الى سناكِ الحواضرْ

لن تنال الرياحُ منك فثوري ... يا اعاصير واعصفي يا مقادرْ
نحن قلبٌ على العروبة خفـّا ... قٌ وجفنٌ على الاخوّة ساهرْ
وحدّ العربُ رأيهم بعد لأي ... كيف لا يأنف الكريم المساخرْ
جمعتهم قضيـة الوطـن الدا ... مي فثاروا على سلام المقابر
أرخصوا في سبيلها كل غـال ... وتخطـّوا لأجلها كل فـاخرْ
انهم موكب الفـداء تهادوا ... للمعالي وشمّروا للمفـاخرْ
ليس من يلبس العظـائم برداً ... مثل من يرتدي لباس الصغائرْ
تنطوي بدعـة النزاع ويبقى ... جوهر الحب خـالداً للأداهر
ان تـكُ الضاد امنا فلمـاذا ... نتعـادى قبـائلاً وعشائر
او يـكُ الله للجميع فأنى ... يدّعيـه مشعوذٌ ومهاتر
كيف يغفو على الرضا عربيّ ... واخوه مقرّح الجفن حـائر
خسئ الواغـلُ الدخيل فإنـا ... امة البأس لا تهون لقاهرْ
كم عـدت محنةٌ عليها وزالت ... واتى ظـافرٌ وادبرَ ظـافرْ
كتبتْ في مهارق المجد مالم ... يبتدعْ كاتبٌ ويكتبْ مغامرْ
خـالدٌ من سيوفهـا وعليٌّ ... من مناراتها الزواهي الزواهر
هي مهما قستْ عليها الليـالي ... مثَلٌ في مـكارم الخلق سائر
امتنتْ كل خـائف في حمـاها ... واقـالت في ظلها كل عـاثر
لم تمتْ شعلة الحميّـة فينـا ... ان تحت الرماد جـذوة ثائرْ
عاد « ريكردس » فاين صلاحٌ ... اتراه اطـلّ في ثوب ناصر ؟
يُرهب الليث في البراري ويُخشى ... وهو في قبضة السلاسل خادرْ
لا نخاف الردى ولا نتقيـه ... ولقـد نتقي رذاذ المعـاير

عرضنا طاهرٌ ففي أي شرعٍ ... ينبح البدرَ نابحٌ غير طاهر؟

ليس من طبعنا العداء ولكن ... شدُّ طوقَ الحمام تجعله كاسرْ

من ربانا تبرعمَ الحبّ والنور - فمنذا احاطنا بالدياجر

من ربانا تلألأت آية السلم وماجت انداؤها في السرائرْ

من ربانا من هذه القمم الخضراء - هلّتْ على الوجود البشائر

أنُجازي على المنى بالمنايا ... وعلى الودّ بالعداء الساخر؟

ما انتفاعي بنعمةٍ غمرتني ... انا منها شاكٍ وغيريَ شاكر

آفة العرب انهم لم يسيئوا ... لمسيءٍ ولم يكيدوا لغادرْ

خطّ منهاجَهم كتابٌ ودينٌ ... ونهتهم عن الدنايا زواجرْ

ذاك تاريخهم فيا عائبيه ... جنة الخلد بهجةٌ للنواظر

كيف ترمونه وفي كل سطرٍ ... ينتشي فارس ويهتف شاعر

الحضارات امرعتْ في ثراهم ... يوم كانت ارحامهن عواقرْ

دعوة الحق بالدماء سقوها ... وحموها من الأذى بالبواتر

لا يتهْ كابرٌ علينا فإنّا ... قد شأونا بفضلنا كل كابرْ

نحن كالشمس يُهتدى بسناها ... وعلى نارها تذوب الحوافر

ان تكن دولة القياصر من روما - فمنّا الذين هزّوا القياصرْ

او تكنْ راية الأكاسر قد عزّتْ ... فنحن الذين دانوا الأكاسرْ

قل لصهيونَ لا تغرّوا بنصرٍ ... وربّ نصرٍ كغيمة الصيف عابرْ

ربما عدّتِ الخسائر ربحاً ... ولقد يحسب الرباحُ خسائر

لم تردّ الاسلامَ عن مبتغاه ... «أُحدٌ» او تحدّه في المغاور

عثرات الاقدام شرّ ولكن ... كل شرّ الا عثار البصائر

عبثاً تذخرون مالاً وجنداً ثروة الحق خيرُ ما انتَ ذاخرْ
عبثاً تحلمون بالسلم ما لم يستعدْ ارضَه شريدٌ وهاجر
عبثاً تنشؤون حائطَ ملكٍ كل ما يُبتنى على الرمل هائر
يلد القفر زهرةً ثم تذوي رحِم القفر بالنضارة عاقر
أحرقوا مسجد النبي فإنّا قد بنيناه خالداً في الضمائرْ
في حنايا ضلوعنا تتعالى للمصلي مآذنٌ ومنابر
احرقوه منارة قد اثارت ما خبا في نفوسنا من ثوائر
طهّرتنا من السفاسف لكن اوغرتنا على الوحوش الكواسرْ
جلّ ذكر النبي عن شانئيه وسما عن ثعالبٍ واظافرْ
واستبيحوا ثرى المسيح جهاراً واجعلوه لفاجرٍ ولعاهرْ
سوف تمحو عار الهزيمة «فتحٌ» طلعتْ آيةُ الرجاء لناظر
لم يعدْ صوتنا انكسار سؤالٍ صار كالرعد في المسامع هادرْ
لم تعدْ كفنا لكسرة خبزٍ جرحها صار منبتاً للبواتر
اين من يجتدي احترامك من يتلقاكَ بابتسارة آمر
يفهم الحر بالاشارة لكن ليس اغبى من يراضي مكابر

* * *

يا رعى الله في العراء خياماً شامخاتٍ على دروب العناصر
خنقت دمعها اباءً وكبراً كيف تبكي من البلاء القساور
تتحدّى .. فيا براكين ثوري واملأي الجوّ رهبةً يا اعاصر
لا تبالي بالشمس تنفث ناراً او بهامٍ من السحاب وهامرْ

نثرتها الرياح شرقاً وغرباً وذرتها على القرى والدساكر
وُلدتُ في مطارح الهون لكن ربما كانت الزوايا مطاهر
خرجت من شقوقها صيحة الثأر وماجت احشاؤها بالعناتر
يولد الطفل للعظائم فيها فهو في مهده على المهد ثائر
يرث الحقد لا ليساب حقاً بل ليحميه من براثن فاجر
بانسوراً على الشهادة حاموا يتبارون في اطلاب المآثر
من سيوف اليرموك انتم بقايا لمعت في الرقاب منها بوادر
كشّر الموت فابتسمتم وارغى فنظرتم اليه نظرة ساخر
كيف يستعظم المنيّة احرارٌ – تمتهم الى المعالي حرائر
بسلاح الايمان قاتلْ والا لاتخض ساحة ، فانك خاسر
علمتمتكم فن البطولة ارضٌ لم تلد للنضال غير الجبابر
جاء منها المسيح آية حب وغا في ظلالها سيف « ياسر »
كل زيتونة حكاية مجدٍ نشرت عطرها على كل سامر
من حزيران . . من لياليه انتم زفرات مجرّحات زواتر
من حزيران . . من لياليه انتم دمعة الوجد في محاجر صابر
من حزيران . . من لياليه انتم لهفة اليتم في جوانح قاصر
من حزيران . . من لياليه انتم رعشة الشوق في جوارح هاجر
اطلعوا في سماء يعرب نوراً ورجاءً على الملمات زاهر
لايقف بعدكم خطيبٌ على عودٍ – ولاترتفع عقيرة شاعر
لو يكون الظروف صاحب نابٍ لم يكن لحمه لذئب وتاجر
افصح القول مايقول قويّ كم هديل يموت بين الزماجر

لم نكن قبلكم سوى موميات   تائهات مابين ماضٍ وحاضر
يتسلى بشتمها كلُّ هاذٍ   ويباهي بلطمها كل هاذر
قد انرتم من دربنا ماندجى   وبعثتم من عزمنا كل فاتر
واندفعتم الى المنايا صفوفاً   من رأى باتراً ينافس باتر
بوركت راحة الشهيد فيها   ماج بحرٌ من العجائب زاخر

• • •

يانسور الفداء من فتح هذي   تغماني على ثراكم ازاهر
سكرت باسمكم فماست دلالا   ولقد يُسكر البخورُ المباخر
اول الغيث قطرة ثم يهمي   ربما أصبح الاوالي اواخر
ان للباطل صولة ثم يمضي   يثبت الحقُ للنعاج اظافر
سوف يعلو صوت العروبة مهما   حاولت خنقه مخالب جائر
لم يخب في نهاية الشوط حقٌ   وعلى المعتدي تدور الدوائر

مقدمات لدراسات في المسرح المعاصر

سعد الله ونوس

حديث مع « جان ماري سيرو J. M. Serreau »

— ما من أداة أعنف من الشعر
— من الخطأ أن تبنوا مسارح على الطريقة الأوربية

ثلاثة اتجاهات مسرحية

في واحد من أحاديثه الصحفية ، رسم روجيه بلانشون — واحد من أهم المخرجين المسرحيين المعاصرين في فرنسا — خريطة مبسطة للاتجاهات المسرحية التي تسود أوروبا حالياً .. قال :

١ — هناك ثلاثة اتجاهات أساسية تسيطر على المسرح المعاصر ، وخاصة في فرنسا. **أولاً** : الاتجاه الذي يريد أن يجعل من المسرح مكاناً « للطقوس » ، وهذا هو الاتجاه الذي يسود معظم مسارحنا . **ثانياً** : هناك الاتجاه السياسي المباشر الذي يتزعمه الكاتب المسرحي

« ارمات ثاتي » ، والذي يرمي الى اتخاذ مواقف صريحة من الاحداث السياسية اليومية. وعلى الرغم من أني أحترم هذا المسرح الذي يذكر بالمسرح الدعائي، والتجارب التي ازدحمت بها العشرينات من هذا القرن ، تجارب بيسكاتور وريتهارت ؛ فانني اتساءل عن جدواه ، واهمية كل مسرح بالنسبة لي إنما تكمن في جدواه . أعتقد أن هذا الاتجاه بسبب مباشرته لن يقنع إلا المقتنعين ، وبالتالي تظل فائدته محدودة .

أما الاتجاه الثالث فهو الذي يتبناه خلفاء برشت من بعده . وفي هذا الاتجاه أضع نفسي . ثمة فكفورت(١) في المانيا ، وأنا في فرنسا .

ثم تحدث بلانشون عن الاتجاه المسرحي الذي يستهدف الخاصة فحسب . تجربة « غروتفسكي » في بولونيا . والمسرح الحي «الليفينغ تياتر » في امريكا وأوروبا ، وهاجم هذا الاتجاه ، وقال إنه بلا وعي ، ويمثل فكراً خطيراً لأنه يقدم على نفس المستوى خطاباً لماوتسي تونغ وحديثاً لمدير شركة « الجنرال موتورز » .

* * *

قد لانوافق بلانشون على تقويمه للاتجاهات المسرحية السائدة في اوروبا حالياً ؛ ولكن لانستطيع في نفس الوقت إلا أن نجد في اللوحة التي يرسمها صورة وافية وشاملة النشاط المسرحي الذي تشارك في صياغته مئات الفرق المسرحية المحترفة والهاوية في أوروبا .

واليوم سنبدأ سلسلة من الاحاديث والدراسات مع وعن مختلف وجوه وتيارات المسرح الأوربي المعاصر . هذه التيارات التي تعكس بشكل ما الواقع المسرحي في اوروبا، وكذلك الخريطة المعقدة لعلاقات الثقافة بالوضع السياسي والاجتماعي للانسان هناك . هذه الأحاديث والدراسات اذن ليست مرصودة لأن تكون تقريراً صحفياً عن نشاط مسرحي معين ، بل لأن تكشف الاتجاهات التي تتجاذب المسرح المعاصر من خلال بواعثها الفكرية ، ومراميها الأعمق ، ولأن تقدم لنا بالتالي عوناً في تقنية حركتنا المسرحية وتصويب نموها .

* * *

---

(١) فكفورت هو المخرج الذي ورث برشت في مسرح « البرلينر أنسامبل » . عمل مع برشت في حياته ، وتابع اتجاهه بعد وفاته .

مع جان ماري سيرو

جان ماري سيرو ذو حاسة مدهشة في اكتشاف المسرحيين المجهولين . كان أول من أخرج « برشت » في فرنسا ، وأول من قدم « بيكيت » . وعندما قرأ « الجثة المطوقة » لكاتب ياسين في اسوأ فترات الحرب التي تخوضها فرنسا ضد الجزائر .. فترة الارهاب والكبت ، حمل سيرو مسرحية كاتب ياسين الى بروكسل في بلجيكا ، وقدمها هناك كصيحة احتجاج على بلاده . وهو أول من قدم الكاتب المارتينيكي إيميه سيزير . قدم له « الملك كريستوف » « وفترة في الكونغو » .

في أعماقه يكمن شاعر مليء بالألوان . وفي مساحة المسرح يعرف كيف يجعل من زوايا المكان عالماً متناغماً ، عنيف الدلالات والألوان ، ينبثق الشعر في جنباته كما لو أنه التعبير الوحيد الممكن في هذا العالم الذي يتحرك لامبالياً حول مسرحه . يغامر، ويتحدى . يغامر بخياله ، ليعيد صياغة العالم الذي يثقله ، ثم يتحدى بهذه الصياغة اللامبالاة المتظاهرة من حوله والرامية منذ الأزل الى أن تحاصر « الفن » ، وتجعله هامشاً بلا صدى ، وبلا نتيجة .

على أن ممارسة طويلة هي التي أعطت هذه المغامرة أهميتها،وبدأ يتحدث مستعرضاً مراحل هذه الممارسة :

— في بداية الخمسينات كان لي حظ التعرف على برشت . وفي نفس الوقت تقريباً بدأت أخرج الأعمال الأولى لبيكيت . وفي أعماقي بقيت موزعاً بين هذين الشاعرين المتضادين . الآن ، أحسبني أقرب أكثر فأكثر الى كاتب ياسين وإيميه سيزير إلا أن ذلك لم يحل مشكلة توزعي ، بل وضحها على نحو أعمق . إننا هنا بصدد تيارين متناقضين ولو ظاهرياً على الأقل. الأول هو تيار بيكيت ويونيسكو وجينيه ، والثاني هو تيار برشت وكاتب ياسين وسيزير وبامكاننا القول إن هذين التيارين بالذات ، إنما يشكلان الهيكل الأساسي لواقع المسرح الفرنسي المعاصر.

فبيكيت ويونيسكو يرفضان « التفاهة اليومية » التي يمكن أن تتجمد فيها حضارة ما . إنهما يفعلان ذلك بخبث وأحياناً بسخرية تعج بالمرارة . المرارة

التي هي الوجه الآخر للحنان . لكن هذا وذاك - مع تفرد كل منهما بخصائصه - إنما يرفضان هذه التفاهة اليومية لحضارة تتبـــدل ، وتمضي نحو الاضطراب . فشخصيات يونيسكو مثلاً تعيش في عالم كل ماتقوله فيه لا يعدو مجموعة من الكلمات الميتة والفارغة . إنهم يتكلمون قبل أن يفكروا . وأفكارهم في النهاية ليست إلا هذه اللغة المبتذلة التي يستعملونها ، وهذه التفاهة اليومية التي يعيشونها . وإننا نجد نفس الشيء عند بيكيت مع فارق أنه يخطط جيداً لما يقوله ، لأنه يحمل في باطنه رسوبات مسيحية عميقة . وهو دائماً يبدو مجروحاً إلى حد الموت بالدين . إن البروتستانتي هو الذي يصرخ في أعماقه .. (يا إلهي .. لماذا وضعتني على الأرض !)

أما اتجاه برشت وكاتب ياسين وإيمه سيزير ، فيرتبط أكثر بالاتجاه الشكسبيري أو الإغريقي . صحيح أن شخصياتهم هي الأخرى فريسة حضارات تعكس أوضاعاً ميتافيزيقية صعبة ، إلا أن مايهم أكثر بالنسبة لهم هو حركة التاريخ ، ومضمون هذه الحركة . وهكذا نجد كاتب ياسين وإيمه سيزير يصوران ويقدمان لنا شخصيات مقبوضاً عليها في لحظات حاسمة من تاريخ بلديهما ، أو إذا شئت حضارتيهما . لنتذكر هنا شخصيات مثل « الأخضر ، ومصطفى ، ونجمة » عند كاتب ياسين ، ولومومبا عند إيمه سيزير . فكلٌّ من الكاتبين يعبر عن اللحظات الحاسمة في تاريخ بلاده المحلي في جوف تاريخ أوسع هو تاريخ اندحار الاستعمار .

باختصار .. كان هذان الاتجاهان ميدان اهتمامي وتجربتي خلال العشر سنوات الأخيرة .

● سؤال :

– قبل أن نثير مسألة التناقض بين الاتجاهين المسرحيين اللذين استوعبا نشاطك خلال تجربتك الطويلة كمخرج مسرحي ، لعل من المهم أن نطرح سؤالاً أوسع وأعمّ .. كان المسرح بالنسبة لبرشت « تعليماً ومتعة » ، وبالنسبة لبيسكاتور « فعلاً سياسياً ودعائياً » ، وبالنسبة لجوفيه مايشبه « فعل الحب » ، فما هو المسرح بالنسبة لك ؟

● جواب :

– قد لا أختلف كثيراً مع هذه التعريفات . ولكن انظر كيف أرى الأمور . المسرح بالنسبة لي هو الشاعر أو الكلمة في حالة « الفعل » . إنه احتفال اجتماعي حول الكلمة . حول نبوءة الشاعر وتعبيراته . ولئن استطعنا إقرار مفهوم كهذا ، فاننا سنحدّ من التناقض بين مسرح كمسرح برشت ومسرح بيكيت . الاختلاف يظهر فقط في وضعية الشاعر بازاء الحياة الاجتماعية . لكن دور الشاعر في داخل كل مجتمع هو دور نقدي . والنقد قد يكون للاجهاز على مجتمع في حالة التحلل ، أو قد يكون للبناء والتغيير . وإذن فالاتجاهان اللذان تحدثت عنهما آنفاً ، واللذان يستوعبان المسرح المعاصر ، إنما يوجدان .. أحدهما في عالم ينتهي والآخر في عالم يبتدىء . وتلك وضعية الشاعر على العموم .

ولكي أعود من جديد إلى السؤال .. المسرح بالنسبة لي هو احتفال أو عيد . إنه تحلّق جمهور حول كاتب مسرحي لديه عن الحياة معرفة اسمها « معرفة شعرية » . معرفة لاترجع إلى أية معرفة أخرى ، وهي تختلف عن المعرفة العلمية . والمسألة تنطرح دوماً على النحو التالي : كيف يمكن أن ننفذ

بهذا الشكل من المعرفة إلى بيئة لاتترك سوى زاوية صغيرة ومهملة للحدس الشعري .

تلك هي المشكلة القديمة قدم العالم .. مشكلة أن ينفذ نقد الشاعر إلى البنى الاجتماعية التي تحاول دائماً الحفاظ على نفسها واستمرارها .

● سؤال :

– الآن أصبح بالامكان طرح سؤال لامسته أكثر من مرة خلال هذا الحديث . عندما احتل الطلاب مسرح فرنسا « الأوديون » ، وقف أحدهم على الخشبة ، وقال منددأ باتجاهات بعض المسرحيين الفرنسيين : (نحن نعرف هوية الذين يقدمون لنا في يوم مسرحية لبرشت ، وفي اليوم التالي مسرحية لبيكيت) . وبغض النظر عن القسوة الفجة في هذا الاتهام فانه ينطوي مع هذا على شيء حقيقي . فالمضمون الفكري والاجتماعي لمسرح البريشتي يختلف جذرياً في رأيي عن المضمون الفكري والاجتماعي لمسرح بيكيت ويونسكو . تماماً كما يختلف التحليل الماركسي للعالم عن التحليل الميتافيزيقي ، أو الغيبي ، ولهذا فاني أجد في تبني التيارين وتقديمهما بنفس الايمان والاهتمام نوعاً من المصالحة ، نتيجتها النهائية خلط الأمور في أذهان المتفرجين ، وبث نوع من اللبس المستمر بحيث لايتبين وضعه ، ولا المسرح الذي يحتاجه . فكيف تنظر إلى هذه النقطة ، لاسيما وأنك متلازم مع هذين التيارين منذ بدايات تجربتك المسرحية ، كما أنك أشرت الى الاعتقاد بأن التناقض بينهما ليس إلا ظاهرياً .

● جواب :

– أنتظر منك هذا السؤال . وفي الحقيقة ما من مصالحة إن كنا نقدم برشت وبيكيت في نفس الوقت . قد تكون هناك مصالحة لو حاولنا القول إن

هذين الاتجاهين هما اتجاه واحد . أما فيما عدا ذلك ليس هناك تناقض أو مصالحة. ففي هذا العالم المستمر التغير – وما من شيء مستمر الا التغير نفسه – وفي مجتمعات دائمة التحوّل نستطيع القول إن رجلاً كبيكيت ، وفي هذه الفترة بالذات ، هو افراز للتاريخ ، والحضارة الغربية في مرحلة من مراحل تطورها . وهو كشاعر يشجب في نتاجه الشعري كل عناصر السكون والتفاهة والموت في هذه الحضارة التي جعلت منه رجلاً مجروحاً الى حد الموت . وبهذا المعنى ما من تناقض .

أما القول إن درس بيكيت هو في بلدان أخرى خارج أوروبا أقل أهمية وجدوى في بناء مجتمع جديد من مسرح برشت فهذا أمر مؤكد . ولكن هنا في أوروبا، حتى بالمفهوم الضيق للمسرح الذي يعلّم الجمهور ، وينمي وعيه والتزامه ، فان بكيت مهم للغاية حين يقدم لنا كيف تتصرف شخصيات « مغرّبة » في تفاهات حضارتها ، وكيف تمضي نحو الموت .

وبهذا الفهم يمكن القول إن بيكيت ليس متعارضاً مع برشت في موقفه من المجتمع ، وان كانت له أساليبه الشخصية في الهجوم على أوضاع مجتمعه.

صحيح ان الغاية التي يتوخاها بيكيت ويونيسكو ليست ، كما هي الحال عند برشت ، مسرحاً يساعد على توعية مباشرة للجمهور ، وتوجيهه الى الثورة وبناء الاشتراكية ، ولكن لو نظرنا بعيداً ، ووسعنا من أفق رؤيتنا ، لوجدنا أنه حتى ولو لم تكن تلك غايتها المدركة ، فان بالامكان الاستفادة من اعمالها كوسائل لايقاظ وعي المتفرج هنا بكل مايجعله غريباً ، ومستهلكاً وضائعاً . وهذا جيد ومفيد .

لقد كنت أقدم برشت عندما اكتشفت بيكيت ، وبدأت أقرأه فأحسست فوراً أنه يعبر بدقة عن وضع الحضارة الغربية في الفترةالتي نعيش فيها ونتنفس هواءها . وهذا ماشدني اليه أنا اعتقد أننا نعيش في فترة هامة جداً على الرغم من أن كل فترات التاريخ هامة . ولدينا - أنا والفرقة التي أعمل معها - الوعي بأننا في فترة تحول هام وجذري وسريع للغاية ، وأن هناك شعراء همهم الرئيسي أن يظهروا كيف تنحل المجتمعات ، ثم كيف تتشكل بانحلالها من جديد . فعناصر الانحلال هي ايضاً عناصر تشكلها الجديد . وبحسب المنظور والنقاط التي تستقطب الاهتمام يمكن تمييز مستويات مختلفة بين بيكيت وبرشت مثلا . لاأعتقد أن لهما كشاعرين موقفاً مختلفاً بازاء المجتمع . فمعرفتهما الشعريةعن العالم ذات طبيعة واحدة ؛ الا ان طريقة تطبيق هذه المعرفة ، وربطها بالقناعة السياسية والدينية لكل منهما ليست واحدة .

وفي حالة كحالتنا من العبث معارضة أحدهما بالآخر . أو القول إننا نصالح بينهما . وإذ أخرجت أول مسرحية قرأتها لبيكيت ، وكذلك المسرحية الأولى لبرشت ، لم يكن ذلك بدافع غريزي أو بناء على انطباع عابر ، وانمابدافع وعي سياسي ، وحس مسرحي . وهذه نقطة هامة ، تتضمن اجابة واقعية على السؤال . فمسرحيةبكيت «في انتظارغودو» تظهرالغباء من منظور ميتافيزيكي ، غباء رجلين ينتظران شخصاً أسطوريا ، بكل ماينطوي عليه هذا الغباءمن جوانب مؤثرة ومقلقة ومسرحية . ومنذ ١٥ عاماً كان مهما أن نقدم مثل هذا العمل . كذلك فان تقديم « الاستثناء والقاعدة » لبرشت في نفس الفترة - الفترة التي بدأت فيها نهاية الاستعمار في العالم تصبح حقيقة - كان هو الآخر ذا أهمية كبرى أيضاً . وأعتقد أنه لم يكن ثمة تناقض في تقديم العملية . واليوم على ضوء الأحداث التي

مرت ، نلمح أنه ليس من الصواب فرض التعارف الكلي بينهما ، أو القول إننا لانستطيع تقديم أحدهما إذا ماقدمنا الآخر . .

أما أن يقال – وهذه قضية أساسية – إن مسرحية كالاستثناء والقاعدة هي أكثر أهمية في بلاد تخرج من الحرب ، أو تعيش حالة حرب ، أو يحتد فيها الصراع الطبقي، فهذا صحيح جداً . وان اجابتي كلها لاتعني في الحقيقة إلاالوضع الراهن هنا في أوربا .

● سؤال :

– إنك تولي الشعر أهمية خاصة في عملك المسرحي . ومن يرى بعض أعمالك يعرف الى أي حد هو مهم بالنسبة لك أن تجعل المسرح مساحة يوشح الشعر لوناً ، ونغماً ، وايقاعاً من كل مسامها . وأنا أعلم بالاضافة الى ذلك ان عملك في المسرح ليس جانبياً أو محض مصادفة . انك تريد الاسهام في تغيير هذه الحضارة المتحللة – كما تقول – عبر المسرح ، أو على الأقل في ايقاظ جمهورك على وضعه المخزي . بمعنى آخر انك تعمل في المسرح لدوافع سياسية بالاضافة الى الميل الفني . والسؤال هو : هل تجد فعلاً أن من المجدي في عالم لامبال ومنظم جيداً كعالمنا الالحاح على الشعر . . ومحاولة توظيفه في تغيير أوضاعنا . إن مسرحيين كثيرين عبروا عن هذا اليأس بطرق مختلفة . أنتونين آرتو كان يريد ان يصبح المسرح عنيفاً كالطاعون يفترس المتفرج ويجعله يصل أعلى ذروة من الاندماج في الاحتفال المسرحي . ومن هذا الاتجاه انبثقت تيارات مسرح العنف و الهابيننغ ، وكل هؤلاء الذين يريدون أن يجرحوا وجوه المتفرجين ، وأن يدموها احتجاجاً على اللامبالاة اليومية وموت الاحساس الذي تديره النظم القاسية التي تحكم هذه المجتمعات . فهل تعتقد ان وسائل اضافية كالاستفزاز أو العنف

ليست ضرورية لمساعدة الكلمة المسرحية على غزو لامبالاة المتفرج، وبالتالي العالم الذي يضغط بشكل ساحق على مسرحك الصغير.

● جواب :

– أعتقد أن الشعر هو العنف ذاته. يبدو لي أنك تريد التشكيك بجدوى الشعر أمام ضرورة « الفعل » . ولكني أفكر بأنه مامن شيء اكثر عنفاً وأعمق حدة وعدوانية من الشعر نفسه . وبعض قصائـــد أراغون وبرشت ورامبو تثبت ذلك .

ان مايميز الشاعر الملتزم سياسياً عن الرجل السياسي هو أن وسيلة تأثير الشاعر على الجمهور هي القصيدة ، ووسيلة عمل الرجل السياسي هي « السلطة » ؛ فالشاعر هو ذلك الذي يرفض باستمرار الحرف الميت . والحضارات انما تعبر عن نفسها باللغة . كما ان الكتاب والشعراء والمفكرين يصوغون القيم والأفكار التي تصبح فيما بعد شرعية وفعلية الوجود . فالشاعر هو الذي يجدد اللغة ، ويعطيها مضامين جديدة . إنه يبدلها فيما ينقدها . ويرفض بشعره كل فساد مجتمعه .

وهل يمكن ان يكون هناك اكثر عنفاً وشاعرية من ان نظهر على المسرح ملكاً او أميراً يدس السم لاخيه كي يحتل مكانه . هنا تكمن الخاصية الدرامية للشاعر . ومامن شيء أكثر قوة من فعل شعري . فعندما يكتب كاتب ياسين بعض الأبيات يجرح ويمزق بعنف . وبالنسبة لي هذا هو الفعل . ولأحدد لك الآن مفهوم الشاعر بالنسبة لي . هو ذلك الذي يقول الكلمات التي نود سماعها ، ويصوغ بالكلمات النبوءة ، طبعاً لا بالمعنى الديني. بكلمة واحدة .. هو الذي يقول كلمات ستبدل الواقع ، وتخلق واقعاً جديداً . وبهذا المعنى .. الشاعر يشبه رجلا مثل « كاسترو » .

وفي الحضارات الافريقية القديمة نجد تجسيداً ممتازاً لهذه الفكرة حيث لايوجد أي فاصل في اتجاهات التعبير القديمة بين الكلمة والفعل . ان الكلمة هي بالذات الفعل .

من هنا .. أجد على عكس مخاوفك أن الشاعر ذو دور جوهري ، وخاصة في مجتمعات ميكانيكية كمجتمعاتنا . لأن الشاعر هو فقط الذي لايمكن أن تناله الميكانيكية .

ونحن نعلم أن الرجل الذي يبني المجتمعات ، بل والثائر ايضاً ، يميل في مرحلة من مراحل بنائه الى ان يتجمد ، ويحول ما بناه صياغة ساكنة ومطلقة . وفي مثل هذه الحالة سيولد تناقض جذري ومستعربين الشاعر وبين بناء المؤسسات الاجتماعية . تناقض جيد ومثمر ، ولابد من ادراجه في صلب الحياة العامة والإبقاء عليه . ذلك يشبه بالنسبة لي دور مهرج الملك الذي كان يستطيع أن يقول ما لايستطيع أحد قوله . هذه المهمة هي الى حد ما مهمة المسرح . وقد كان الأمر كذلك بالنسبة لبرشت نفسه وانا شديد الاخلاص له . واتجاهنا في تقديم مسرح ذي وظيفة ودور اجتماعي يجعلنا ندرك كم إن نظرية برشت حول المسرح هامة ومفيدة . لكن لابد من تطبيقها بذكاء ديالكتيكي لا كما تطبق (كراسة تعليمات الجندي) . هذا غير صالح . والجمهور ليس أبله .

والصعوبة التي تواجه عملنا في فرنسا ، هو أن نجد داخل الجمهور نقاط ارتكاز لمسرح يستعيد الإلهام الشكسبيري . لمسرح بريشتي . ربما لاينبغي أن ننفي منابعنا ، ولكن لابد الى جانب ذلك من تغيير هذه المنابع وإيجاد أخرى جديدة . فنحن في فرنسا متأثرون بالتراث اللاتيني اكثر من التراث الانكلو سكسوني . وللأسف اكثر التيارات اتصالاً بعالمنا الراهن وبيرشت هو التيار

الشكسبيري أي الانكلو سكسوني . ومن هنا تأتي صعوبة ايجاد منابع جديدة لدينا . ومؤلفون مثل كاتب ياسين وايمه سيزير أهميتهم كبيرة من أجل هذا السبب ، فهم قد تحرروا من الدائرة الضيقة للتراث المسرحي الكلاسيكي .

● سؤال :

– هل هذا يفسر ولو بصورة جزئية ازمة المسرح في أوروبا عامة وفي فرنسا خاصة ، حيث لانرى ظهور كثير من المؤلفين الجدد ؟

● جواب :

– فعلاً ما من مؤلفين جدد. ومنذ الحرب الثانية كان هناك كما ذكرت سابقاً تياران .. الأول هو بريشت الذي رحب به الجمهور ، وانتشر في بيوت الثقافة وتظاهر في مسارح جديدة مثل المسرح القومي الشعبي .. إلا ان كل هذا النشاط الذي حاول ان ينفذ بالمسرح الى اوسع القطاعات الشعبية لم يؤد الى ظهور كتاب جدد .

والتيار الثاني مثله جينيه وبيكيت ويونيسكو، والآن تضاف مشاكل جديدة يطرحها التلفزيون ، وتعقد المواصلات العالمية والتعايش السلمي وسوى ذلك .

إلا أن يقظة العالم الثالث في رأيي تتسم بأهمية كبرى . فهذا العالم بدا يعي ويبرز كطاقة وإمكانية جديدتين . ولهذا فانك تلاحظ تركيزي المستمر على أهمية كاتب ياسين وسيزير . انهما يقولان للجمهور أموراً جوهرية وكلمات جديدة ، سيكتشف الجميع فيما بعد أنها كلماتهم .

● سؤال :

– لنعد الآن الى عملك . هل تحدد لي ماذا يعني المجال المسرحي بالنسبة لك ؟

● جواب :

– المجال المسرحي بالنسبة لي هو ان أعرض على الخشبة أفقين في نفس الوقت . الأفق العقلي للجمهور ، والأفق الشعري للكاتب الدرامي . معنى ذلك أن نجسد في مكان قد يكون خشبة مسرحية الرؤية الشعرية للكاتب . نجسدها بشيء ، بفعل ، بحركة . . حتى تمس الأفق العقلي للجمهور بحيث يبدو الأمر وكأننا نقدم صوراً كامنة في ذهن المتفرج، لكن كان لابد من أن يأتي شاعر فيكتشفها .

● سؤال :

– ألهـذا السبب تعتمد كثيراً على العناصر البصرية والسمعية في إخراجك ؟ . .

● جواب :

– بالضبط . . هذه هي وسائلي للاتصال بما اسميه الافق العقلي للجمهور .

● سؤال :

– أي دور يلعبه الممثل في عملك كمخرج ؟ . . لاحظت وانا اتابع تدريباتك على مسرحية « الرهينة » لكلوديل انك لست مخرجاً ديكتاتوراً فيما يتعلق بالممثل ؟

● جواب :

– بالعكس . . لي جانبي الديكتاتوري بالنسبة للممثل . ولكن ثمة أشياء لابد من الانتباه اليها . فالممثل هو الذي يعرف كيف يستخدم الرؤية الشعرية لكي ينفذ بها الى المجال العقلي للجمهور . هو المتحدث او العلاقة التي تجعل افكار الشاعر واضحة . فالمخرج ليس ساحراً ، وإنما هو الذي يقود الممثل بشكل واع ودون ألغاز واسرار . نحن نعلم أن الممثل يمكن أن يؤدي دوره بطريقة غريزية او بطريقة واعية . ومهمة المخرج هي أن يجعله واعياً لما ينبغي عليه أن

يفعل ، لا أن يجبره على فعل ذلك . إني أبحث عن مشاركة الممثل الكاملة لما أطلبه منه ، اي أن يعيه ، ويقتنع به تدريجياً . وليس أسوأ من أن يكون الممثل ناقلاً أعمى .

● سؤال :

- ماذا كنت تفعل لو أنك في بلد كبلادي حيث لاتوجد تقاليد مسرحية .. اية نصيحة تقدمها لنا كي نجد مسرحنا ؟ ..

● جواب :

- ينبغي الانطلاق من كل ماهو حكاية شعبية وتقاليد . وقد وجد دائماً في التاريخ الاسلامي، وحتى عندما يكون ذلك مستتراً ، صراع بين الشعب والاقطاع حتى في عصور قديمة جداً . وكانت الحكمة الشعبية تعبر عن نفسها بالحيلة والامثولات . فلديكم تراث غني بالنقد الذكي . جحا مثلاً هو شخصية لا تستطيع أن تقوم بثورة . لكنه كتراث شعبي استطاع أن يحتفظ عبر قرون طويلة بصفاء الهجوم على مفاسد الاقطاع . فالتراث الشعبي قاعدة جيدة للانطلاق ومليئة بالامكانيات .

يثير البعض بالنسبة لبلاد تجربتها المسرحية بادئة مشكلة عدم توفر المسارح، إلا أن ذلك ليس له أدنى أهمية . ومن الخطأ الفادح ان تبنوا مسارح على الطريقة الأوروبية . بوسعكم أنتم بالذات ان تساعدوا التجربة المسرحية على الخروج من الأشكال المتجمدة التي وصلت اليها في اوروبا . فهنا يتحول التراث المسرحي الثقيل عبئاً يجمد حركتنا، ويقيد قدراتنا على التفكير بأشكال واساليب جديدة.

أما في مناخ بكر فإن الفرصة واسعة لأن تكون البداية حرة ، وعفوية، ومليئة بسخونة الاحتفال الجماعي . .

والرغبة في التمثيل ضعيفة في بلدان العالم الثالث ، ومرد ذلك الى أن الانسان في العالم الثالث يحيا المسرح في حياته اليومية . وهذا المسرح بالذات هو احد الأشكال المسرحية عنفاً .

ستصدر المعرفة خلال الأشهر المقبلة أعداداً خاصة في :

■ المسرح العربي وقدرته على التفاعل مع المجتمع الثوري

■ السينما ومكانتها في الحضارة الحديثة

■ وقائع مؤتمر الأدباء العرب الثامن (أيلول ١٩٧٠)

فرانس فانون والعنف

زينب جندي الميلي

— الجزائر

ان فانون، وان كان مارتينيكي المولد، ما انفك طوال حياته السياسية يشعر بأصوله الافريقية البعيدة .

وعلى الرغم من حمله للجنسية الفرنسية قبل التحاقه بجيش التحرير الجزائري ، كان يحمل معه علامة مميزة من المستحيل عليه تغطيتها وتذكره دائماً بمحيطه ، وأنه ليس له من الفرنسية إلا الورقة التي يحملها .

وبالاضافة الى ذلك ، فان فانون طبيب نفسي ، أي أن ثقافته نفسها تدفعه الى الكشف عن الخفايا الكامنة وراء الكلمات ووراء التعبير . فهو بطبيعته الحساسة التي ارهفها اللون ، وعمقتها المهنة، يميل الى تجاوز الظواهر . وربما نجد انفسنا أمام هذا السؤال : هل فرانس فانون - نظراً للون بشرته - من معتنقي فلسفة الزنوجة. قبل الاجابة على هذا السؤال يجب علينا أن نعرف بايجاز ما معنى الزنوجة ، ثم نعطي خلاصة موجزة لهذه الفلسفة .

ماهي الزنجية أو الزنوجة ؟

لعل تعبير الزنوجة التي هي ترجمة لكلمة (Negritude) أحسن من تعبير الزنجية ، لأن كلمة الزنوجة على وزن كلمة « العروبة » التي هي غير « العربية » .

ان الزنوجة باختصار هي الوعي بسواد البشرة ، أو بعبارة أدق هي الوعي بعدم بياض البشرة ، كما عرفها مندوب الوفد السوداني في اللقاء الثقافي الذي انعقد خلال المهرجان الثقافي الافريقي الاول بالجزائر في تموز (يوليو) ١٩٦٩ .

والزنوجة كفلسفة – ثم كسياسة – تنطلق من واقع استحالة تحقيق مصير الابيض الذي عجز الأسود عن تحقيقه ، فالتجأ الى تمجيد الماضي ، أي الى تمجيد الزنوجة . وفي هذا الصدد نجد فرانسيس جونسون يقول في المقدمة التي قدم بها كتاب فانون « جلود سوداء وأقنعة بيضاء » :

« ان الأسود يريد اقامة الدليل ، بواسطة الرفض المطلق لكل حضارة بيضاء ، على تفوق القيم السوداء » .

ونظراً الى ان الزنجي مضطهد ومحتقر بسبب بشرته السوداء ، فان الحل الأمثل لمشكلة هذه هو أن يصبح مثل « الأبيض » . ومن هنا نجد أحلام السود مليئة بتصورات « البيض » . لكن الاحلام لا تحل المشكلة ، واذا كان في استطاعة المستعمر الابيض ان يخادع نفسه ، ويتحول الى مثيل الابيض عن طريق التجنس أو عن طريق آخر ، فان الزنجي لا يستطيع ان يفعل ذلك بسبب سواد بشرته . وهنا يصطدم باستحالة مطلقة . ومثل هذا الصدام هو الذي دفع بعضهم الى وضع الزنوجة كفلسفة ، ثم كسياسة .

وان أردنا أن نعبر عن هذا «الموقف الزنوجي» تعبيراً واضحاً نجد أن الزنوجة فكرة لاتعدو أن تكون انتقاماً من الابيض، لكنه انتقام معكوس ان صح هذا التعبير، لأنه ينصب على الماضي وليس على الحاضر. وفكرة الانتقام الكامنة وراء «الزنوجة» هي التي تدفع بعض الزنوج المنادين والمعتنقين لهذه الفلسفة السياسية الى الشعور بالارتياح والرضى، ويجعل الأبيض المتفوق أيضاً يستقبل هذه الفلسفة «الزنوجية» استقبال ترحيب لأنه انتقام لاينصب على الحاضر وبالتالي لا يفسد مشاريع الأوربي الأبيض.

فانون والزنوجة:

هذا الطابع المميز «للزنوجة» كما أراد لها واضعوها، جعلها فارغة من كل محتوى ثوري، وجعل هذا «الانتقام» يتم في الخيال لأنه ينصب على الماضي، وبالتالي أفرغ الزنجي من شحنة العنف الكامنة فيه، والتي كان من الممكن أن تؤدي عملا ايجابياً. وبعبارة أخرى، إن الزنوجة في انتقامها هذا توجهت الى الماضي، وجعلت هذا الانتقام أمراً قد تم بالفعل في الماضي الضيق، ولم تعد إذن حاجة الى هذا الانتقام في الحاضر أو المستقبل، على ما يمكن أن تسفر عنه من ايجابية وفعالية.

وإذا كان هذا الخداع – خداع الانتقام في الزنوجة – قد جاز على كثيرين، فانه لم يجز على فرانس فانون، بحكم مهنته وحساسيته المرهفة كما ذكرنا سابقاً. لأن فانون يعرف أن المعركة معركة الحاضر والمستقبل، ومن العبث وإضاعة الوقت في تصور انتصار سابق في غابر الأزمان. يقول فانون في هذا الصدد:

« إني لا أريد أن أكون ضحية لخداع عالم أسود .. ان حياتي لا يمكن ان تخصص لاحصاء القيم الزنجية » .

ولعل العامل الاساسي الذي جعل فانون يتجه هذا الاتجاه المضاد للزنوجة هو وجوده في محيط « ابيض » . لأن الزنوجة تكسب المؤمن بها نوعاً من الرضى عندما يحيا الزنجي في محيط زنجي ، فالحيـــاة في محيط زنجي تساعد على الخداع لأن وجود « الديكور » نفس « الديكور » الذي كان موجوداً في الماضي تقريباً يساعد على تخيل واستحضار الماضي وتصور امجاده الحقيقية او الوهمية ، وبالتالي قد يشفي غليل الزنجي ويرتاح لهذا الانتقام من الابيض بواسطة تصور تفوقه عليه في الماضي .

أما الزنجي الذي يعيش في محيط أبيض فمن الصعب عليه ان يحيا وسط تلك الأوهام ، ومن هنا نجد نفسه في مفترق الطرق بين التمرد والثورة من جهة ، وبين الخنوع والاستسلام من جهة ثانية .

فانون يلتقي بالعنف في طريق مسدود :

لكن فانون عام ١٩٥٢ ، فانون مؤلف كتاب « بشرات سوداء ، واقنعة بيضاء » لم يكن يشعر في الواقع بالاستعمار إلا من زاوية التمييز العنصري . فقد عاش آنذاك في فرنسا ، ثم في الجزائر . فمشكلته على الرغم من ان لهـا ملايين النظائر في العالم لا يمكن ان تكون إلا فردية . لأن فانون يعرف ان الظروف الاقتصادية والاجتماعية لمسقط رأسه لا يمكن – لمدة طويلة – أن « تحوّل » هـذا هذا المشكل من طابعه الفردي الى طابع جماعي .

ومن هنا كانت ثورته على الزنوجة ، ومن هنا كان تعطشه الى العنف . انه يسخط على الزنوجة لأنها سلبية ، ولأنها خداع ، ولأنها تمثل انتصاراً وهمياً يمجد العجز .

وهو شديد الحساسية لأنه يتصور أنه وحيد في محيط كله اعداء، لأنه ملىء بالبيض . وهو متعطش للعنف لأنه ليس إلا العنف من حل لهذا المشكل .

ان هذا التعطش الى العنف وهذا الايمان به حلاً وحيداً لمشكل اللون الأسود هو نفسه الذي ضاعف شعور فانون بالعجز ... فماذا يستطيع في منتصف القرن العشرين، وحينما التفت لايجد أية مظاهر تدل على امكانية قيام ثورة في هذا البلد او ذاك من بلاد افريقيا السوداء ، وبذلك يزداد تعطشه الى العنف ... عطش يزيد فيه مثل العطش الحقيقي - المعرفة المسبقة بأنه لا يوجد أثر مرئي للماء .. ان العنف ، التعطش الفردي إلى العنف ، ينتهي الى مأزق تام .

اللقاء مع الثورة الجزائرية :

في هذه الفترة التقى مع الثورة الجزائرية . وقد مهدت لهذا اللقاء مهنته ومنصبه في مستشفى الامراض العقلية بالبليدة ، حيث استطاع أن يلمس وجود قاسم مشترك بين جنسيته وبين الشعب الجزائري ، وهو : « الاضطهاد » . وقد زاد من تعاطفه مع الشعب الجزائري - قبل الثورة - أنه كما قال لاحد معارفه « قام بعدة رحلات الى داخل البلاد حيث شاهد بعض المظاهر الاجتماعية الدينية مثل مشاهد استخراج الجن ، والنشرة الخ .. فقارن بين المظاهر الاجتماعية التي شهدها في الجزائر وبين مظاهر الطقوس الافريقية التي يقرأ عنها في الكتب .

ولكن هذا التعاطف مع الشعب الجزائري لايمكن أن يحل مشكلة فانون : لان هذا الشعب نفسه مضطهد .

الا أن اندلاع الثورة في الجزائر قلب هذا « الموقف » بالنسبة لفانون رأسا على عقب ، فهاهو هذا الشعب المضطهد يثور لكرامته ، وها هو ينجح في الصمود أمام الفرنسي الابيض . وبهذا استطاع فانون أن يجد حلا لمشكلته في هذه الثورة ، فانتماؤه الى الثورة الجزائرية ، والتحاقه بصفوفها سيحقق انتماءه الاجتماعي الى شعب افريقي اولا ، وأبيض ثانيا .

لكن الموضوعية تفرض علينا أن نقول بأن لقاء فانون مع الثورة الجزائرية لم يتم دفعة واحدة ،او من أجل حل مشكلته الفردية فقط .

فالحقيقة أكثر من ذلك تعقيدا . ولا يجوز أن ننسى أن فانون تكون فكريا في مناخ غربي يسوده التفكير المعروف بـ « الهومانيزم » . ولا ننسى بأن فانون درس الفلسفة كما قال لاحد معارفه وليس من شك في أن هذا التكوين قد يدفعه الى الابتعاد عن العنف وعن الثورة . لكن ابتعاده عن العنف وعن الثورة يجعله يقف ،أحب ام كره ، الى جانب الاوربي الابيض ..

ويبدو أن كلا من مهنته وثقافته ،بالاضافة الى وضعيته العرقية ، ساعدته على أن يختار طريق الثورة والعنف ، فمهنته قد اتاحت له الاطلاع على بعض الحالات النفسية وفهم مداها ،وهي حالات نفسية لبعض رجال البوليس الذين كانوا يتولون التعذيب . كما مكنته من الاطلاع على مدى وحشية الاوربيين الذين يضطر الى الوقوف بجانبهم في حالة اتخاذ موقف « هو مانيست » . ويكفي أن

نطالع بعض مقالاته في « المجاهد التي نشرت عام ١٩٥٧ لكي نتأكد من هذه الحقيقة . (١)

وفي نفس الوقت دفعته كتقدمي محتك بالفلسفة الوجودية ومتفتح على الماركسية الى اختيار طريق الثورة الجزائرية .

اما وضعيته العرقية فقد شرحنا دورها في دفعه الى الثورة الجزائرية . تلك في رأيي هي أهم العوامل التي دفعت فانون الى العنف والى الثورة الجزائرية

العنف حلا لجميع المشاكل :

في الثورة الجزائرية اذن وجد فانون ضالته المنشودة التي تشفي غليله الى العنف ، وخاصة حينما برزت علامات النصر في الفترة الاخيرة من حياة فانون . كل ذلك دفعه أكثر فأكثر الى التعلق بالعنف كحل لجميع المشاكل ، وكمطهر لجميع الشعوب من أدران الاستعمار ، وأمراض البورجوازية والتفسخ .

ان فانون أصبح يؤمن بالعنف لأن الاستعمار عنف مطلق خال من كل تفكير .

ان الاستعمار ليس آلة مفكرة ، ليس جسما مزودا بعقل ، وانما هو عنف هائج لا يمكن أن يخضع الا لعنف أقوى (٢) » .

وعلى هذا الأساس راح فانون يمجد العنف ، بل ذهب الى أبعد من ذلك ، أي الى اعتبار العنف هو دليل الوسيلة ، ودليل الغاية في آن واحد . »

---

(١) فرانس فانون - من أجل افريقيا . ترجمة محمد الميلي ص ٤٧ المطبوعات الوطنية الجزائرية . بيروت ١٩٦٦ .

(٢) فرانس فانون : معذبو الأرض ، ص ٦٦ ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي . دار الطليعة بيروت ١٩٦٣

« ان العمل يعني العمل على اماتة المستعمر . وهذا العنف يتيح للضالين والمطرودين من أفراد الجماعة أن يعودوا وأن يرجعوا الى امكنتهم. وأن يرتدوا الى الجماعة . ان العنف هو الطريقة المثلى . ان الانسان المستعمر يتحرر من العنف بالعنف . ان هذا العمل يضيء طريق العامل لانه يدله على الوسائل ويدله على الهدف (1) » .

والواقع أن هذه النظرة الى العنف واعتباره حلا لجميع المشاكل ، ودليلا الى الوسيلة والى الهدف ، هذه النظرة لاتخلو من عاطفيته ومن رومانسيته ، وتجانب التفكير السياسي . صحيح أن الاستعمار « عنف هائج » ، لكن ليس صحيحا أنه خال من التفكير . فاذا كان الاستعمار المباشر قــد نجح في الماضي والاستعمار الحديث ينجح اليوم فانه استعمل العنف واستعمل أيضا الفكر السياسي .

وفي نظري أن المعادلة التي وضعها فانون وهي أن الاستعمار عنف هائج لايمكن أن يخضع الا لعنف أقوى وأن الاستعمار خال من التفكير « هذه المعادلة ، وان كانت صحيحة في حد ذاتها ، الا أن النتائج التي تؤدي اليها خطيرة ، وبالتالي تؤدي إلى مغالطات عديدة لان اعطاء القيمة المطلقة للعنف يؤدي الى اهمال جانب هام من المعركة الثورية ، وهو المتمثل في « وحدة الطبقات الاجتماعية » ، التي تحتاج او تقوم عليها البلدان التي عرفت الاستعمار سواء في مرحلة الكفاح او مرحلة البناء بعد الاستقلال . لكن هذا المشكل اي « وحدة الطبقات الاجتماعية » لم يتعرض له فانون في كتابه معذبو الأرض . لأن فانون كان منصرفاً الى تمجيد العنف من جهة ، ولأن لقاءه مع الشعب الجزائري ومع ثورته تم في نطاق العنف .

أي أن عدم اندماج فانون في المجتمع الجزائري قبل الثورة ، او بعبارة اخرى كونه من اصل غير جزائري ، جعله لا يكتشف كل الجوانب الاجتماعية للكفاح الثوري ، وجعله لا يأخذ من تلك الجوانب سوى العنف وحده .

(1) المرجع السابق ص ٨٨ .

الهروب من اللعنة

شوقي بغدادي
- الجزائر

كلُّ الأقبية المخفيّه
وجميعُ الغرفِ السريّه
كلُّ الأغوار الحجريّه
وجميعُ الحفر المنسيّه
كلُّ الأكواخ المرميّه
في أقصى أقصى البريّه
هذه الأشياء الصغرى
الملأى حيويّه
قد رفَّ بها عصفور القلبِ

كما في القصص السحريه

واجتاز الأعتابَ الجوّابْ

وانكشفتْ أسرارَ الأبوابْ

وتحوّل عشق العذريين

الى الرغبات الجسديه

فامتصّوا بالفمِ ، والكفّين

جميعَ المتعِ الروحيه

●

ماذا في المائدة الكبرى

إني متخوم

ماذا خلف المدن الأخرى

عِقدي منظوم

تتلاحقُ باستمرارٍ فيه شموسٌ ونجوم

لكنّي الآنَ أحسُّ بأنّ الجوعْ

قد عادَ معي

وبأنّي لم آكلْ إلاّ لأجوعْ

والآن أحاول أن أنكرَ حرمان المحرومْ

فأفتشُ كالمحمومْ

أتخيّل أنّ الشعرَ اجتاز معي الأبعادْ

أتصوّرهُ كان الصيّادْ

لم يوغلْ إلاّ كي يرجعَ أحفلْ

ينثر من جُعبته الأطيبَ والأفضلْ
لكنـّي الآن أرى الأشياءَ بشكلٍ آخرْ
أسوأ أم أفضلْ
لا أدري
فالدنيا ليست كالشِعْرْ
والدنيا لايُمكن أن يعرفها الانسانْ
لكنـّا نجهدُ أن نرسمَ بالألوانْ
نهراً ، أو جبلاً ، أو بعضَ الأغصانْ
ونرى من بعد بأنّ المنظرَ كانْ
لايُشبهُ ذاكَ الماءَ
ولا تلك الأحجارْ
ولا ذاكَ البستانْ
فلماذا نجهدُ أن نعرفَ أكثرْ
مادام المنظرُ لايُمكنُ أن يتكرّرْ
سأمرّ غداً بالوجهِ المظلمِ للقمرِ
وأتابعُ في لهفٍ سفَري
فكأنـّي مطرودٌ في الكونِ
وملعونٌ أتهرّبُ من قدَري

• • •

الاشتراكية والأخلاق *

خوسيه كارلوس ماريا تيخوي
ترجمة محمد حافظ يعقوب

في كتاب « دفاعاً عن الماركسية » - الذي نقل هذا الفصل منه - يحاول ماريا تيخوي أن يبرهن أن « الاخلاق الاشتراكية الثورية لاتظهر ميكانيكياً من المنفعة الاقتصادية ، بل تتكون في خضم الصراع الطبقي البطولي » .

ويعتبر ماريا تيخوي (البيروني) من اشهر الكتاب الماركسيين في امريكا اللاتينية . ويؤسفنا أننا لا نعلم من حياته الشيء الكثير . لكن ما نعرفه عنه يسمح لنا بأن نقول انه مات قبل اربعين سنة خلت ، إثر حياة قصيرة ، لم تتجاوز الثلاثين ببضع سنوات ، مليئة بالنضال الشاق السياسي والفكري . لم تعرف معظم اعماله طريقها الى النشر حتى اليوم .

وفي هذا الكتاب، يفند ماريا تيخوي آراء النقابي البلجيكي جورج سوريل التحريفية (صاحب نظرية تجاوز الماركسية) ، وكذلك لابر بولا وجوبيتي . ولقد وجد في الفيلسوف الايطالي الشهير بنديتو كروتشه صديقاً حيماً تمكن بفضله من سبر غور التناقضات التي وجد نفسه في خضمها ...   - المترجم -

---

(*) عن مجلة القارات الثلاث التي تصدر في هافانا (كوبا) . العدد الثالث ١٩٦٧
Tricontinental . No 3 - November - December 1967

ان الانتقادات الموجهة الى الماركسية ، في أنها غير أخلاقية ، لدوافعها المادية ، او لقسوة النقد الذي وجهه ماركس وانجلز للأخلاق البورجوازية في مؤلفاتها ، ليست بالجديدة . وبالنسبة لهذه النقطة ، فان النقد التحريفي الجديد لم يأت بأي امر لم يكن الاشتراكيون الطوباويون وكل من لف لفهم من الاشتراكيين اللفظيين قد قالوه من قبل . لكن تقييماً اخلاقياً لماركس قدمه مجدداً بنديتو كروتشه – الذي يعد من اشهر ممثلي الفلسفة المثالية – يعتبره كل المعنيين اكثر وزناً من اي تحسر جزويتي مترحم على العقلية البورجوازية . ففي واحد من ابحاثه الاولى عن المادية التاريخية ، رافضاً الموضوعة القائلة بفقر الماركسية الأخلاقي ، كتب كروتشه ما يلي :

« تحدد هذا الاتجاه مبدئياً بحكم الضرورة التي وجد ماركس وانجلز نفسيهما فيها ، فيما عدا الاتجاهات المتباينة للاشتراكيين الطوباويين ، وذلك بتقريرهما أن ما يسمى بالمسألة الاجتماعية ليست مسألة اخلاقية (إن هذه المسألة ، كمثال يبين كيف يمكن فهمها على هذا الأساس ، لن تحل بالوسائل الأخلاقية أو المعنوية) ، كما بينا بنقدهما الصارم للأخلاق الطبقية والايديولوجيا . وقد دعمت الهيجلية ، التي يرجع اليها تفكير ماركس وانجلز ذلك ، كما اعتقد ، لأنه بات واضحاً أن الأخلاق في الفلسفة الهيجلية فقدت مكانتها التي أعطاها إياها كانت ، والتي استند اليها هربارت[١] فيما بعد . وأخيراً ، فان لفظة « مادية » لاتعني هنا اللامبالاة ، بوحي من أن اللفظة تدع العقل يتصور مباشرة التطبيق الكامل لما نعنيه « بالمنفعة » و « اللذة » . بل من الواضح ان الأخلاق المثالية والمطلقة ، بالمعنى الفلسفي لهاتين الكلمتين ،

---

(١) هربارت المربي الألماني ، وليس الفيلسوف البريطاني هربرت سبنسر .
– المترجم –

هما بالضرورة من الاقتراحات الاشتراكية . فاذا لم تكن المنفعة هي التي تدفعنا لخلق فكرة القيمة الزائدة كمنفعة اخلاقية واجتماعية ، فما هو التعبير الذي يجب استخدامه لتعريفها ؟ ثم ألا يبيع البروليتاريون قوتهم المنتجة لما هو اكثر غنى في المجتمع الراهن ؟ وبدون هذه الافتراضات الاخلاقية ، كيف يمكن تقييم ذلك التهجم القاسي والنقد العنيف ، الذي تخلل تصرفات ماركس السياسية ، والذي تمتلىء به كل صفحة من صفحات رأس المال ؟ (المادية التاريخية والاقتصاد الماركسي).

لقد اقتطعت باديء الأمر فقرة كروتشه هـــذه لأنها قادتني أيضاً الى الاستشهاد ببعض فقرات يونامونو Unamuno « معاناة المسيحية » ، حيث أدى ذلك الى أن أتلقى مؤخراً رسالة من يونامونو نفسه ، اذ كتب قائلا ان ماركس في حقيقة أمره فيلسوف اكثر منه معلماً (بروفسور) .

ولقد استشهد كروتشه مراراً بالمقطع الذي استشهدنا به آنفاً . وواحد من مفاهيمه النقدية في هذا الموضوع هو بالضبط مايلي : « انتفاء اللاخلاقية الداخلية أو الماركسية اللاأخلاقية » . ويستغرب ، في نفس هذه الفقرة ، لماذا لم يفكر أي امرىء بنفس الطريقة التي يعتبر ماركس فيها أخلاقيـــاً عظيماً ، على أنه ماكيافيلي البروليتاريا » ! وهو يعتبر هذه الفكرة حقيقية على ضوء المفاهيم التي كونها في دفاعه عن مؤلّف الأمير الذي يرى أنه غبن بتلك التأسفات التي جعله أحفاده بواسطتها الضحية . وفي موضوع ماكيافيلي ، كتب كروتشه مايلي : انه المعبر عن ضرورة وآلية السياسة ، التي هي دون الخير والشر الأخلاقيين . وان القوانين التي سنثور ضدها هي ثابتة ، بدون شك ، بالنسبة لأي نوع من أنواع الشعوذة ، والتي لايمكننا طردها من هذا العالم بمعونة المـــاء المقدس » . وبرأي كروتشه فان ماكيافيلي قد وضح بجلاء انه « لايفرق بين العقل والروح

وفي السياسة، وانه كان يقظاً تجاه الحكم الذاتي ، وأنه يفكر بهما على أنهما مترابطا التأثير ترابطاً برغمه على تلويث يديه بالشعب الجاهل . كما ان السياسة فن ناشيء وجدت ضمنه وترعرت المؤسسة الكبرى « أي الدولة » (مبادىء السياسة) . والتشابه بين هاتين الحالتين قام كروتشه بتوضيحها في الفقرة التالية : « ان الحالة حسب الاعتبارات التي تدور حولها الانتقادات الماركسية للاخلاق وتتمركز ، هي التي علينا أن ننشئها بالنقد التقليدي للأخلاق الماكيافيلية . هذا النقد الذي ازدهر من قبل دوسانكتيس (في الفصل الثالث الذي يدرس به ماكيافيلي من كتابه قصة الأدب) ، لكنه النقد الذي لايراجع بنهجية . وفي مؤلف البروفسور فيلاّري ، يقرأ المرء أن اعظم منجزات ماكيافيلي هي اكتشافنا أنه لم يول أهميته للمسألة الأخلاقية . وقد تساءلت مراراً فيما اذا فعل ماكيافيلي العكس أو وجد نفسه مرغماً على تناول موضوعات كثيرة ، من ضمنها تلك التي لم يولها أية عناية أو ليس لديه ما يقوله بصددها ، ولا مفر من أن نعود ونبرهن لأولئك الذين يدرسون الكيمياء ولم يغوصوا بعد في الأساس الفلسفي للمسألة » .

ان الوظيفة الاخلاقية للاشتراكية — بالقياس للملخصات الماركسية الغامضة والمبتسرة ، كما فعل لافارغ ، التي تنفي امكانية الخطأ — يجب عدم البحث عنها في الدفاع الوعظي ولا في التأملات الفلسفية ، التي لاتؤلف كتبه ضرورة في تشكل النظرية الماركسية ، بل تخلق ضرورة أخلاقية للمتجبن لهاتفس خصائص النضال المعادي للرأسمالية .

وكما قال كاوتسكي : « عبثاً يحاول العمال الانجليز تحقيق الوعظ الأخلاقي بتصور حياة راقية بعيدة عن وضاعة الحاجات المادية . لأن أخلاق البروليتاريا تنبع من تصميمها الثوري ، تنبع منها نفسها ، بحيث ستغدو أقوى وأمتن هدفاً .

وهو ما سينقذ البروليتاريا من اسقاط قيمة الثورة » . ويضيف سوريل : « ان كاوتسكي يرى ان الاخلاق تنطلق أساساً من فكرة السامي » ، وعلى هذا فهو يقع في خلاف مع العديد من الماركسيين الرسميين الذين يعممون تناقضاتهم وهزمهم من الأخلاقيين . إنه على العكس يرى ان « الماركسيين لديهم أسبابهم الخاصة لإبراز فقر كل أولئك الذين يركزون اهتمامهم على الاخـــلاق : كل دعاويي الاشتراكية الاصلاحية ، والطوباويين والديمقراطيين ، الذين يكررون مجاناً وبلا مقابل مفهوم العدالة الذي لا يستطيع امرؤ ان ينكر على أي كان الحق في أن يتطلع الى هذه التمنيات الجميلة كتعابير انشائية منمقة أو كسفسطة عاجزة عن قيادة الحركة العمالية إلى باب النجاة » .

ويستطيع المرء أن يعزو تفكير سوريل هذا الى دفاع ادوارديبرث عن الوظيفة الأخلاقية للاشتراكية . ويقرر بيرث : « يبدو أن دانيل هارفي يعتقد أن قيمة المنتج تؤدي الانسان . انه يمثل في ذهني الحماس الأميركي الكامل لحضارة صناعية . بيد أنها لن تبدو على هذا الأساس ، حياة الروح الحرة العزيزة الى كما هي عزيزة بالنسبة إليه . وإنني بعيد عن الإيمان في أنه لا يوجد في العالم إلا حفظ الانتـــاج . لأن ذلك يرجع في النهاية ، إلى تلك الشحنة التي تقف ضد الماركسيين ، الذين يحملون مسؤولية كونهم أخلاقيين وميتافيزيائيين أي ماديين بآن واحد . وليس ثمة من أمر أكثر زيفاً ، إذ ان المادية التاريخية لا تفوق على الإطلاق التطور الأعلى لما سماه هيجل الروح الحرة أو المطلقة ، بل هي على العكس ، شرطها الأول . وان ما نريده بالضبط ، هو مجتمع قائم على أساس اقتصادي متين يصنعه اتحاد الدكاكين الذي يتنفس العمال الأحرار فيه الروح الحماسية للانتاج والفن ، والدين والفلسفة التي ستتطور بالمقابل تطوراً مذهلاً ونتائج منسقة منطلقة كصاروخ .

ولقد قام الذكي لوك دارتن الذي كتب بأسلوب ذي طابع فرنسي غاية في الجودة ، بإلقاء الضوء على ما يشبه الهيمنة الدينية المنتشرة في الماركسية ، والظاهرة التي تنطبق كلياً على تأسيس أول دولة اشتراكية في العالم . حين برهن على ذلك تاريخياً بدراسة الضلالات التاريخية في الغرب . أي ان السامي ، كما يتصوره البروليتاريون ، ليس يوتوبيا عقلية ، ولا هو بالأمر الدعاوي .

حين طالب هنري دومان الاشتراكية بمحتوى أخلاقي ، أراد أن يبرهن على أن المنفعة الطبقية لا يمكنها أن تغدو في ذاتها خاصية حركية ذاتية بالنسبة للنظام الجديد . ولم يستطع بأية حال أن يذهب إلى « أبعد من الماركسية » ، ولم يقم كذلك بتنقيح (تحسين) الأمور التي لم ينتبه النقد الثوري اليها في حربه على الانشقاقية النقابية التي تمارس المنفعة الطبقية المقنعة بالاقتناع بمحدودية المطامع المادية . ان أخلاق المنتجين ، كما يرى سوريل وكاوتسكي ، لا تظهر ميكانيكياً من المنفعة الاقتصادية ، بل تتشكل في الصراع الطبقي ، وتتقوى بالألم . ومن العبث أن نبحث عن الحس الأخلاقي الاشتراكي في تلك النقابات التي سقطت تحت تأثير البورجوازية — حيث روضت البيروقراطية وعيها الطبقي — ، أو في تلك المجموعات البرلمانية ، التي تقمصت روح أعدائها بقصد نظرها وفي موقفها القتالي في الخطابات والأفكار . وبالاضافة لذلك ، يعبر هنري دومان عن أمر لا ضرورة له عندما يقرر ان « المنفعة الطبقية لا تفسر كل شيء . إنها لا تخلق الدوافع الأخلاقية » . وهذا الاعتراف يمثل نمطاً من نتاج عقلية القرن التاسع عشر ، حين كانوا ينكرون عمداً الفكر الماركسي وتاريخ الصراع الطبقي . لقد تسلق هنري دومان شجرة الفكر الماركسي . إن الأخلاق الاشتراكية قد تشكلت بالصراع الطبقي ، فإذا ما أذعنت البروليتاريا ، في ممارستها الأخلاقية ،

لمهمتها التاريخية ، فستحقق سلفاً وعي مصلحتها الطبقية . لكن المصلحة الطبقية ، بحد ذاتها ، لا تكفي . ولقد فهم الماركسيون ، قبل هنري دومان بكثير ، ذلك وعرفوه تماماً . وبذلك ، بالضبط ، نشأ نقدهم العظيم للسذاجة الاصلاحية : « فبدون النظرية الثورية ، لا وجود لفعل ثوري » كما كان يكرر لينين دائماً ، مشيراً الى ذلك الاتجاه الذي كان يدعو إلى نسيان الحركة التاريخية بحجة الانتباه للظروف الآنية .

إن النضال الذي يمارسه العمال في سبيل الاشتراكية يغرس فيهم طاقة هائلة وقناعة مطلقة . فمن أجل الغاء العنف وجعل أي مستوى من المستويات المضادة لهم تافهاً كلياً ، عليهم أن يسترشدوا بعقيدتهم المادية ، وأن يشكلوا على أساسها أخلاقاً نظرية وفلسفية . سأل لوك دارتن ، بعد زيارته لمدرسة سوفييتية ، فيما إذا كان يستطيع أن يجد في روسيا مدرسة دينية . إلى هذا الحد ينظر مثقف ماركسي للتفكير الديني ؟ إن المادي إذا ماوجد شخصاً يمارس ويدافع دينياً عن قناعاته ، يمكنه تمييزه لغوياً فقط عن المثاليين (لدى بحثه عن فرق آخر من الفروق بين المثالية والمادية ، يقرر بوناموتو : « لما كانت المادة بالنسبة لنا أكثر من تصور ، فإن المادية هي المثالية) .

إن العالم الذي اختبر الصراع الطبقي ، والذي تدفعه تصوراته عن المستقبل المادي ويتحدث بالعموميات ، لعلمه القليل ، قد يعبر عن ذلك بموقف أخلاقي شبه بورجوازي ، لكنه لايستطيع أن يرتفع إلى مستوى الأخلاق الاشتراكية . ومن غير المعقول أن يعتقد ، أن ماركس قد دافع ، أو أراد أن يفصل العمال عن أصولهم وأن يجردهم من كل مايربطهم بعملهم ، ولذلك فان الصراع الطبقي يغدو لدى ماركس أكثر كمالاً وتحديداً . ولا يقبل بهذا الحدس

إلا أولئك الذين يتمسكون بالنصوص الماركسية ، مثل لافارغ الذي يدافع عن الحق كما يريده المرء أن يكون .

وكما ان الطاحونة والمصنع يعملان في عقل وروح العامل . فإن النقابة والنضال الطبقي كذلك يكملان ويتممان عملية تثقيف العامل .

إن المصنع ، كما يقول جوبيتي ، « يفضل الرؤية المحددة لتعايش المصالح الاجتماعية : صلابة العمل . وإن الفرد يكبر معتاداً على الشعور بأنه جزء من عملية الانتاج ، جزء أساسي بنفس درجة الدونية التي هو فيها . وبذلك يغدو المصنع المدرسة الحقيقية بكل معنى الكلمة للعزة والوضاعة . ولن أنسى ماحييت الانطباع الأول الذي أعطانيه العمال ، عندما كنت في زيارة لمعمل (فيات) أحد المعامل الإيطالية القليلة التي للرأسمال البريطاني فيها نصيب . ولقد شعرت أن لدى هؤلاء العمال موقفاً ذاتياً ، تصميماً عظيماً ، واحتقاراً لكل اخلاق الهداية dilettantism . إن كل من يعيش في مصنع يتمثل قوة العمل : الرغبة في العمل واعتياد التعب . انها طريقة في الحياة تأسست على تحمل وهضم العقاب ، حيث تتوطد وتستمر في العامل . كما تتبع هذه الفضائل الرأسمالية من التقشف الصرف - حيث تنمو ، بالمقابل ، التضحية بالآلام الذاتية ، والشجاعة في القتال وغريزة تناول المواقف السياسية بصلابة . لقد ولدت قوة ايمان الشباب الانجليز بايديولوجيات محددة ، وفي الغوص داخل القطر بهدف الفوز ، وفي التقويم الدائم لرغبة الاستمرار قدماً في عملية تصليب الصراع السياسي ، لقد ولدت لدى هؤلاء الناشئة ، المضامين العظيمة التي سادت في أعظم ثورة منذ ظهور المسيحية .

في هذه البيئة القاسية من المثابرة ، من التأثير ، ومن العناد ، تولد طاقات

الاشتراكية الاوروبية ، حتى في الاقطار التي يهيمن فيها الاصلاحيون البرلمانيون وكذلك في الاقطار الامريكية اللاتينية التي تمثل مثالاً رائعاً للاستمرار والديمومة حيث منيت الأحزاب الاشتراكية ورجالات النقابات بثبات الهزائم دون كلل . وعلى كل حال ، فان الحركات الغاضبة او اي نشاط بشكل عام سواء أكان ذا ميزات عادية ام غير عادية ، ستجد دائماً ان هذه الجماهير عظيمة العديد وشديدة العناد . كما درس رينان الصوفي والمتدين ذلك في المنقد الاجتماعي . وكما فعل لابريولا حين امتدح الاشتراكية الالمانية :

« هذا الاسلوب الجديد والمهيب من التربية الاجتماعية ، اي الموجود في هذه الجموع الغفيرة من العمال والطبقة الوسطى . يؤدي الى تشكل وعي جديد ، يترافق في داخله مع تصور مرشد لظروف الاقتصادية - دافع لتصعيد النضال - والدعاوة الاشتراكية ، حيث سيفهم ذلك على أنه الهدف والنقطة المحققة بآن واحد » .

اذا لم تفهم الاشتراكية على انها نظام اجتماعي ، فان هذا البرهان الأخلاقي والانجاز الثقافي العظيم سيبته كلياً استعراض التاريخ . والفقرة التي استشهدنا بها لدومان من قبل ، تفسح المجال للفرضية القائلة ، لكن بقصد مختلف ، إن « الأمر الاساسي في الاشتراكية هو النضال لمنفعتها » حسب تعبير دومان . ان هذه العبارة ، تذكرنا بما كان ينصح برنشتاين الاشتراكيين في أن يشغلوا انفسهم بالحركة ذاتها وليس بنتائج الحركات . وبهذا ، يعبر زعيم التحريفية بشكل فلسفي على ما يريد أن يقوله دومان .

بل ان دومان نفسه لا يتجاهل الوظيفة التربوية والروحية للنقابة . وهكذا تغدو تجربته الخاصة فعلياً وضمنياً ، تجربة ديمقراطية - اشتراكية . فكما يلاحظ

هو ، تساهم المنظمات النقابية بدور اعظم بكثير مما يتصوره غالبية العمال ومعظم المستخدمين . حين تتحكم بكل قوة الروابط بين العمال وعملهم اليومي المعتاد . انهم يصلون الى هذه النتيجة ، دون معرفتها غالباً ، من خلال محاولتهم الحفاظ على ممتلكاتهم واموالهم ، وبتطوير الثقافة الصناعية ؛ بتنظيم حق العمال في توحيد الفحص ، وتطبيق معيار ديمقراطي لتطوير التسويق ، بنظام التوكيلات والتفريغ الخ .. وهكذا ، فان النقابة تخدم العامل كثيراً وبدون معضلات ، جاعلة منه مواطناً لمدينة المستقبل ، وليس من اجل دفعه لمعالجة كل العلاقات السيكولوجية بين العامل وبيئة السوق فحسب .

لكن التحريفي البلجيكي الجديد ، الذي لا يخفي مثالية ، اكتشف ميزة وجدارة كل ذلك من خلال عن اتصال العامل بتطلعاته المادية ، وبالمقياس الذي يجعله هذا السبب الاخير نفسه شخصاً جاهلاً ، وحاملاً تناقضات مثالية البورجوازية الصغيرة !

في اجتماع ليس على مستوى المرحلة

محمد أحمد العزب
– القاهرة

خليجٌ من العطر يغزو المكان ..
خليجٌ من الأوجه الكابية
خليجٌ من التافهين ..
خليجٌ من التافهات ..
دُمىً لا تُحير ..
دمىً هاذية
وأجهش خلف ِشتاء التملل :
« يا حطبَ النكبة الآتيه » !!
وباسْم الذي لستُ أدري ..
يدور الحوارُ .. ويُهرقُ نهرُ انفعال
وأصغي إلى كل ما قيل ...

أعرف ما سيقال

وأشعل سيجارتي من صديق ينامُ ..

وأبصقُ .. أبصقُ حتى حدود الملال

وأفتح نافذة الريح للثلج يضرب كلَّ وجوه الخليج

فينكمش السادةُ الميّتون وراء الضجيج

وأرتجِلُ الفِعْلَ ..

أطفىءُ في مخمل المائده

بقايا سجائريَ الخامده

فينفلتُ السادةُ الميتون يضجّون بالضحك المستريح

وأعرفُ أني عصير البدايات ..

كلُّ العناصر في داخلي ذاتُ لون صريح

وأقضم في همجيّة طفل لقيط أظافري السيّئه

وأمسح وجهي بكُمّي ..

وأبكي .. وأضحك .. في لغة نَيّئَه

فينقلبُ السادةُ الميّتون تشاوى من العَطَبِ الداخليّ

وأعرف أني غريبٌ عليهم ..

غريبٌ على الجدل الدائريّ

فأسحب أوراقيَ المهمله

وأكتب للسادة الميّتين عديداً .. عديداً .. من الأسئله

فيرتعدونَ !!

وأسحب منهم بطاقاتهم ..

فلا يهمسون !!
وأسحب منهم لفافاتهم ..
وأطفئها في جيوب المعاطف .. والقبعات ..
فلا ينبسون !!
وأسحب حتى كراسيهم ..
فلا يشعرون !!
أخيراً ..
تركتُ الكبار جلوساً على الأرض لا ينهضون
ويا ليت .. يا ليت .. لا ينهضون !!

* * *

مقاعدكم .. أيها الخائرون ..
خذوها ..
فما زال في الجيب ألف حوار
لماذا تريدون قتلي ؟؟
صديق ..
صديق أنا ..
لانفلات النهار
لداخلكم ..
للمدى الدائري ..
لعصفور دمع على كل دار
لضحكة ثأر بلا فلسفات يكوّر قبضته في اقتدار

ويضربُ .. يضربُ .. وَجهَ الجدارْ

أماناً .. بلا قلقٍ ..

أيها الميتونَ وراءَ غبار الغبارْ

خذوا ساعتي ..

وانظروا .. كم مضى من الوقتِ ..

ساعاتكم في انحدارْ

قفوها ..

فتأكذبُ دقاتها ..

تُكذّبكمْ ..

ياصِغار الصغار !!

وأكتبُ

في الجلسة القادمه

سأدعو الذي مات فيكم .. وَفيَّ .. وفي الآخرينْ

ليحكي لكم في لقاء العشاءِ ..

عن الموت قبل اشتجار السيوفْ

وعن بَذَخِ الحفلِ

عن مَرْكَباتِ الضحايا الضيُوفْ

وعن كَذِبِ الشعراءِ الرَّعايا ..

وعن عَطَبِ الموْسم المسرحيّ

وعن تافهين يعيشون فيكمْ

وعن فارغين
وعن فارغين
وانّي لأعرف أنيَ أخيفُ به جدبكم
وأعرفُ أنيَ أخيفُ به ثرثراتِ الأنين
ولكنّهُ قَدَرُ المرحله
فقد عَبَرَ الجسرَ ،
وامتّدَ في الزمن الآخرِ
وقال هناك .. عن الهاهُنا .. بلا أقنعه
أكادُ أراه يُكوّرُ في شفتيه الكلام مدّى زوبعه
ويحرق أكفانهُ ،
لاعناً جُسُورِ العبور
ومُعتصراً في انفعال الأسى
لأحزان أحزاننا
كلَّ ما في عروق الحضورِ
ومندفعاً في حنايا التواريخِ
يُوقظُ كلَّ الرجالِ
ويُوقظُ كلَّ العصورِ
ليغتصب الأرض من غاصبيها
ويحرق فوق الضحايا البخورْ !!

• • •

وأكتبُ ..

في الجلسة القادمة

سأدعو الذي مات فيكم .. وفي .. وفي الآخرين

فقولوا هنا :

« مَنْ معي ؟ »

« مَنْ عليَّ ؟ »

ويرتجف السادةُ الميتون مِنَ القادمِ الفارسِ الأبجديه

وينهمرون رجاءً إليَّ

يقولون : دَعْنا

ويرتطمونَ سجوداً .. سجوداً .. على قدميْ !!

ويكتب طفلٌ تخطّى الثمانين فيما أظُنُّ :

« انتهى الاجتماع » !!

ويكتُبُ :

« والحاضرون أقرّوا .. »

فأُردِفُ : «أنَّ القضايا تُسطّحُ .. أنَّ قضايا القضايا تُباعْ» !!

ويشتمني الطفلُ !!

يبصقُ فوق ثيابي !!

يُصعّدُ إسمي للهوَّةِ المُرْعِبه !!

أقول له في هدوء الجليدِ :

بلادي رُبىً ..

رُبىً ياصديقي ..
رُبىً مُنْتَجِبَة
أتفهمُ ؟
ضوءُ النجوم بلادي
وصوتُ العصافيرِ صوتُ بلادي
بلادي بها يسكن اللهُ .. والأنبياءُ .. ولا يسكن التافهونَ
فمن في بلادي ترى أجْهَضَكْ ؟؟

• • •

ونخرجُ ..
مِلءَ الحقائب شِعرٌ ..
ومِلءَ الحقائب صوتُ الرصاصْ
وأتركُ للسادة المُتعبينَ بطاقة حزنٍ على المائدهْ
أقول لهمْ :
مِنَ السارقينَ التُرابَ ..
ومنكمْ – وعفواً – يكون قِصاصُ القِصاصْ !!!

فلسفة الثورة الفرنسيّة (١)

عرض وتحليل : ختام الدروبي

تحتل الثورة الفرنسية واحداً من اهم واخطر الاحداث التي انجزهـا الانسان في رحلته الشاقة صعوداً نحو العدالة والتقدم. ورغم ان كثيراً من مبادىء تلك الثورة الرائدة حزت بنصل المقاصل فيا بعد ، الا ان ذلك الشعاع الخاطف الذي اشعلته كان بمثابة الضوء الاخضر الذي تفتح امام وعي الانسان المسحوق تحت اقدام مفاهيم الحق الالهي .

واذا كانت الثورات الاصلية لاتقوم بغير تمهيد فكري سابق ينظر لها ايديولوجيتها، فان نصيب الثورة الفرنسية في هذا المجال كان اكثر من رائع ، ويكفي أن افكار فلاسفتها ما تزال مرجعاً من اعظم مراجع الفكر الثوري والانساني العالمي .

والكتاب الذي بين إيدينا الآن لكاتب يساري ألماني هو (برنارد غرو تويزن) حلل فيه بعمق ودقة فلسفة عصر ما قبل الثورة الفرنسية نفسها .

بالطبع لم يحاول المؤلف اكتشاف مذاهب فلسفية جديدة بقدر ما أهتم ببحث تطور بعض افكار سابقة تطوراً ثورياً ، وقد بدأ الكاتب محاولته بتقييم فلسفة القرن السابع عشر من خلال دراسة اهم مفكريه ، فديكارت رائد النهضة الاوروبية الحديثة وضع مفهوماً هندسياً للطبيعة والانسان ، بينما آمن باشكال العدالة الانسانية في وقت كانت تسيطر على انسان القرن السابع عشر فكرة عبث الحياة والخوف أمام إسرار الكون .

---

(١) B. Groethuysen - Philosophie de la Révolution Française
Editions Gonthier - Paris 1966

برنار غروتويزن — فلسفة الثورة الفرنسية — ترجمة عيسى عصفور منشورات وزارة الثقافة — دمشق ١٩٧٠ .

وينتقل المؤلف الى القرن الثامن عشر الذي انجب في نهاية سنيه ثورته الفرنسية العظيمة .

حمل القرن الثامن عشر مفهوماً جديداً مشرقاً للمجتمع والحياة ، فهذا مونتسكيو جعل من روح الشعب سلطة لاتعلوعليها سلطة ، كما اعتبر القوانين التي يصنعها الشعب شيئاً مقدساً يجب ألا تمس ، واذا حدث فلا ينبغي ان تمس الا بيد مرتعشة (١) .

أما عالم الانسان كما يتصوره مونتسكيو فهو عدد متلاحق من الجماعات المنظمة وفق مبادىء مختلفة ، ويبحث مونتسكيو في وظيفة الدولة ويحددها بغرضين : حفظ البقاء ، ثم العمل والانتاج . ورغم ان موقف فكر مونتسكيو يمثل تطوراً بالغ الخطورة في دفع الانسان نحو الشعور بذاته ، الا ان الثورة الفرنسية لم تكتف بالوقوف عند وجهات نظره التي تكتفي باستقصاء الدرجة التي تتناسب فيها القوانين مع هذا الشكل او ذاك من أشكال الدستور .

ان مونتسكيو يبرز من ناحية اخرى قيمة الجماعة ويجعلها مركزاً لمشاعر الأفراد الذين تتألف منهم ، أما الثورة الفرنسيه فانها تتدخل في حياة الشعوب تدخل الخالق متوخية تغيير احوالها . ثم ان مونتسكيونظر الى القوانين على أنها حصيلة مسيرة تاريخية ، اما الثورة فقد نقضت هذا المفهوم واعتبرت القوانين نتاج الارادة العامة وحدها .

فولتير : يعتبر فولتير بحق ــ رغم المفهوم الارستقراطي لفلسفته ــ الشعلة الأولى الكبيرة التي اضاء بها الشعب الفرنسي طريقه نحو الثورة . رفض فولتير مجتمعه وكنيسته بالشكل الذي وجدهما عليه .

---

(١) الرسائل الفارسية ــ الرسالة ٢٩ .

في البداية : انتقد القوانين التي أملتها مصلحة وقتية للمشرع ، ولأن هذه المصلحة مؤقتة فهي متناقضة بالضرورة . ولكن هناك من جهة أخرى فكرة عما هو عادل او ظالم مستقلة عن جميع القوانين وكل الديانات ، وهذه الأفكار الأخلاقية هي قوام المعارف الضرورية للبشر ، كما ان القيمة الأخلاقية هي التي تصنع في نظر فولتير وحدة في الوقائع المتنوعة التي يأتينا بها تاريخ الفكر البشري . القيمة الأخلاقية عند فولتير هي من جهة مقولة موضوعية وقانون الطبيعة ، وهي من جهة ثانية مقولة شخصية موجودة في قلب كل انسان ، وفي هذه الناحية بشكل خاص يخالف فولتير مونتسكيو ، فبينما يتغير مذهب مونتسكيو في النقد دوماً حسب الغايات الخاصة التي تسعى اليها الأجهزة الاجتماعية المختلفة ، فان مذهب فولتير في النقد ينطلق بالمقابل من نظرة الى القيمة شاملة هي سيادة العقل المطلقة في تقييم المعطيات التي تعرض له .

والنقد لديه يتحول بشكل متزايد الى ثورة وغضب ، وقد وجد القرن الثامن عشر ذو الفكر المرهف في فولتير صورته الجدلية ، فهو يحلل المجرد فيجعله حسياً ، وهكذا هيأ فولتير الموقف النقدي لرجال الثورة الفرنسية . وكما لقن مونتسكيو رجال الثورة الفرنسية التدابير التشريعية التي يجب اتخاذها لضمان حرية المواطنين ، كذلك يلقن فولتير فرنسيي ١٧٨٩ اتخاذ موقف نقدي ازاء التقاليد واللجوء الى سلاح الجدل .

وقد اتفقت الثورة الفرنسية مع فولتير في انكار كل ما كان وفي الأمل بعهد جديد يكون فيه لكل شيء معنى .

ولكن الثورة تتجاوزه من وجوه اخرى . فهي تتخطى فولتير بطرحها قضية الحق بالنسبة للقوانين . فباستلهام الحق يمكن الوصول الى المطالبة بأن

يكون الشعب بكامله متنوراً وان يغدو في وسع كل فرد ان يفكر في الشروط التي يمكن ان تصاغ فيها القوانين المثلى .

ان ارستقراطية العقل التي آمن بها فولتير ،تسعى الى اسعاد البشر جميعاً وهي تطالب بالحرية لكل فرد في ان يفكر بنفسه، وهي بهذا تهيىء فكرة الحرية التي ستأخذ بها الثورة الفرنسية فيما بعد ، أما الفكرة الكبرى الثانية للثورة الفرنسية ، وهي فكرة المساواة ، فهي التي سيكشف عنها روسو ويضفي عليها حياة جديدة .

روسو : غريب بين البشر : ربما كانت غرابة روسو عن مجتمعه وبحثه عن غير المألوف هما الأمران اللذان سرعان ما لفتا نظر المجتمع الفرنسي اليه ، فقد ناهض ذلك الغريب القادم من جنيف جميع المؤسسات الاجتماعية القائمة آنذاك ، وكان شعوره بالغربة هذا أمام واقع الأمور هو الذي جعله يتصور انسانية من نوع آخر ، وان يقدم مفهوماً جديداً للانسان .

يطالب روسو الانسان ان يعود الى الحالة الطبيعية التي وجد عليها ، وعندها سيكون في وسع الناس ان يعيشوا مستقلين عن بعضهم لا يقيمون فوارق فيما بينهم . والانسان الطبيعي خيّر بطبعه ، لأن الحب عاطفة فطرية لدى الانسان . ثم يكشف لنا روسو كيف ولدت فكرة الملكية عندما بدأ الانسان يفكر في الاستقرار . ويتهم روسو الملكية بادىء الأمر بانها هي التي خنقت فكرة المساواة والحرية عندمـــا جعلت الذين لا يملكون خاضعين للذين يملكون .

ويقترح روسو للتخلص من هذا الوضع،مع الابقاء على الحياة الاجتماعية، ان تحل محل ارادة الانسان ارادة غير شخصية هي القانون الذي ينبغي ان

يكون فوق الناس على ان يشترك مجموع الشعب في وضعه ، وهكذا تغدو مشكلة حرية الفرد في الدولة محلولة ، إذ يمكنه العيش دون ان ينقاد لارادة أفراد آخرين ،لأن انضواءه الى الجماعة سيكون آنذاك انضواءً حراً،وينشأ من ثم ما يسميه روسو : **الحرية المدنية او الاعتبارية** .

من النموذجين اللذين خلقهما روسو للانسان – وهما الانسان الطبيعي والانسان المدني – تخيل روسو نوعية جديدة من الحياة ، فالنفس من جهة تنطوي على ذاتها ، وتحيا حياتها الخاصة في الطبيعة ، ومن جهة اخرى تتلاشى في حياة الشعب وتسلم ذاتها كلياً الى الكائن الأخلاقي الذي تؤلفه الجماعة .

المساواة عند روسو : أكسب روسو انسانه الجديد شعوراً قوياً بذاته ، والنتائج الثورية لوجهة النظر هذه واضحة . فالانسان الذي اكتسب مثل هذا الشعور بالذات وبقيمته كانسان بمعزل عن كل صلة بالمجتمع ، لا يسعه الا أن ينكر النظام الاجتماعي القائم وأن يعارضه . وفيما بعد ، ستغدو مسألة العلاقات بين الانسان الطبيعي والانسان الاجتماعي احدى المسائل التي ستطرحها فلسفة الثورة الفرنسية على نفسها .

ان الجانب الثوري في فكرة روسو عن الانسان الطبيعي هي نظرته الى هذا الانسان بمعزل عن كل تسلسل اجتماعي . أما مفهوم المساواة عند روسو فهو مفهوم ديمقراطي أساسه القيمة التي يمثلها الانسان البسيط الطبيعي بحالته التي نراه باقياً عليها بين افراد الشعب .

لقد أثر ولاشك كل من روسو وفولتير على الثورة الفرنسية ، على اساس انهما يمثلان نزعتين فكريتين روحيتين من اعظم افكار القرن الثامن عشر . فقد اشترك الاثنان في ابراز قيمة ماهو انساني على وجه العموم ، وأن كان احدهما

يجعل قيمة الانسان في قدرته على التفكير وفي بداعة النتائج التي تؤدي اليها هذه القدرة (فولتير) . بينما يجعل الآخر (روسو) هذه القيمة في مايشعر به الانسان عندما يخلو الى نفسه .

الانسان ، الموضوع الطبيعي للحقوق : استطاعت افكار القرن الثامن عشر التحررية ان تقدم للانسان مفهوماً آخر عن نفسه ، فقد شعر ان له لمجرد كونه انساناً صفة حقوقية مطلقة ، وانه لهذا السبب ينبغي ان يكون الناس احراراً ومتساوين،ولكن ذلك - بالدرجة الأولى على الاقل - ليس لأن التمتع بالحرية وبالمساواة سيجعلهم سعداء،بل لأنهم احرار ومتساوون فيما بينهم بالطبيعة .

يمضي المؤلف فيما تبقى من كتابه في شرح وتحليل الحقوق الانسانية فيقسمها الى حق طبيعي ، وحق وضعي،ثم يشرح العلاقة بين الحقوق ككل ، وبين الحقين الرئيسين للانسان ، وهما الحرية والمساواة .

الحرية تعني في معناها الحقوقي ان جميع التصرفات الصادرة عن ارادة الانسان الحرة لها صفة الحق ، وليست - ولاينبغي ان تكون - الدولة او النظام الا وسيلة لضمان حرية الفرد .

واذا كانت الحقوق الطبيعية ناشئة مع طبيعة الانسان،فانه ينتج عن ذلك ان جميع الناس متساوون في الحقوق . قد تكون هناك حالات من عدم المساواة في العمل وفي الانتاج ، الا انه لايمكن ان يكون هناك عدم مساواة في الحقوق .

حسب كل انسان ان يكون انساناً كيما تكون له حقوق ، وبما ان كل انسان لايمكن ان يكون انساناً اكثر من سواه او اقل ، وبما ان صفته

كانسان لايمكن استعارتها اوالتخلي عنها،فان كل فرد يحمل في ذاته حقه كانسان. وهذا الحق واحد لجميع الناس .

ان الحرية تعبير عن صفة الحق الخاص بالانسان ، بينما تعطي المساواة هذه الصفة مدى شاملا .

الحق والملكية :

ينسحب مفهوم الحق في الحرية والمساواة على مفهوم الملكية ، فكل فرد يجب ان يساوي غيره بنفس الحق في كل مايتعلق بملكيته وبانتاجه الاقتصادي او الفكري . وهنا تحاول الثورة الفرنسية التوفيق بين الحرية والمساواة من جهة ، والملكية من جهة اخرى . فالمالك الحر في نظر الثورة رمز للحق ، ولكن الثورة الفرنسية لا تضع في الحقيقة معياراً كمياً للملكية لكي يصبح الانسان بموجبها حراً ، فجميع المالكين متساوون في الحقوق ،وهذا يدفع – من وجهة نظر الثورة الفرنسية – المواطنين الى العمل بكل قواهم ليصبحوا مالكين واحراراً .

في الفصلين الأخيرين من كتابه ،شرح المؤلف الأسس التي انطلقت منها الثورة الفرنسية في سن القوانين ووضع الأسس الحقوقية لها .

تشترك الأمة بأكملها في سن القوانين ، ثم تفوض من ينوب عنها في تطبيقها على أساس الفصل بين السلطات الثلاث ، منعاً من تركيز قوة القانون في يد واحدة .

الخاتمة :

لاشك ان المؤلف قد نفذ بعمق الى فكر أولئك الفلاسفة الذين مهدوا لقيام الثورة الفرنسية ،فاستطاع تحليل افكارهم والسير بها نحو فكر الثورة الفرنسية نفسه .

والكتاب بعد كل شيء وثيقة فكرية ثمينة عن احدى الثورات الكبرى التي فجرها الانسان عبر تاريخه الطويل .

الأدب البولوني

من المقاومة إلى التحرر

د. صالح خلف الحمارنه

كانت فترة الاحتلال النازي من أحلك سنوات بولونيا ، عانى خلالها الشعب أقسى أنواع الاضطهاد ، وسيق الآلاف الى المعسكرات والمعتقلات والموت الجماعي . وأمر مفروغ منه ان المحتل قد منع كل نشاط ثقافي، وعطلت كل دور النشر والمسارح، وأغلقت المدارس الثانوية والعليا والجامعات ولم يصدر في هذه الفترة كتاب بولوني واحد **بطريقة علنية** . ولكن مع هذا كله لم يكف الكتاب البولونيون عن الكتابة وكانوا يطبعون بعض ما يكتبون سراً ويذاع بين الناس بأسماء مستعارة — هذا وان الكثير من الكتاب قد جندوا في المعركة ضد الغزاة وبعضهم رمي في معسكرات التعذيب وكثيرون قد استشهدوا ، وكذلك تعرضت الكتب والمكاتب للحرق والإبادة ، فقد فقدت بولونيا ٨٠٪ من كتبها وكذلك خسرت وارسو العاصمة كثيراً من اللوحات والتحف الفريدة المهمة عند هدمها .

في أثناء الاحتلال انتقل كثير من الكتاب البولونيين الى الاتحاد السوفياتي ، في البدء الى مدينة لفوف ثم الى داخل البلاد . وهناك كانوا يصدرون مجلة « نوفي فيدو كروقي آفاق جديدة » وكذلك أخذ ينشط المسرح البولوني . هذا وان بعض الكتاب أنضم الى الجيش البولوني الذي تكون هناك وبعضهم مثل فاندا فاشيلفسكا أخذوا يصدرون الصحف والنشرات للجنود . ووجد قسم آخر من الكتاب بعد سقوط البلاد بيد هتلر أنفسهم في غرب أوروبا وفي افريقيا وأميركا وفي الشرق العربي وايران وغيرها من البلدان . وأم المراكز البولونية أثناء الحرب كانت لندن لا من الناحيتين السياسية والعسكرية فحسب، بل والأدبية أيضاً . وفي لندن أخذت تصدر عدة مجلات منها « نوفا بولسكا — بولونيا الجديدة » وبعد خلاص بولونيا وتحررها رجع معظم الكتاب للوطن وبقي في الخارج بعض منهم مثل ليخون وفيجنسكي وفوومبرفتش وغيرهم .

وهنا أورد قصيدة لشاعر المقاومة ل. كامل ياشنسكي بعنوان « لن نقهر » . وهذه الكلمات التي أطلقها الشاعر البولوني ضد الاحتلال النازي لبلاده مشابهة للكلمات الملتهبة التي يطلقها شعراؤنا ضد احتلال الصهاينة النازيين الجدد :

لن نقهر

نحن أقوياء
ليس بالسلاح
ولكن بالارادة الحديدية
ارادة لن تكسر
نحن مدركون بأننا نكافح
من أجل قضية مقدسة
ـ • ـ
بالظاهر نحن بلا حول
مطاردين ومدحورين
ولكن أنظر رايتنا
انها تحمل شعار « النصر لنا »
رغم ان دربنا درب الاستشهاد
ومعالمه صلبان ومشانق وقبور
بيد ان هذى الطريق
لا تقودنا لليأس
بل تلهمنا قوة جديدة
ـ • ـ
رغم ان العدو يقتل من صفوفنا كل عاشر
ولا يبقى منا الا النفر
فمن هذه المشانق
ومن هذه المقابر
ستبعث بولونيا !

اما في سني الحكم الشعبي الاشتراكي والتي تزيد على خمس وعشرين سنة فان الأدب قد تكون وتطور بتأثير عوامل تختلف ولا شك من عدة وجوه عن العوامل التي يتكون فيها الأدب في العالم الرأسمالي ، ومن جهة أخرى فان مؤرخي الأدب ونقاده لم يقولوا كلمتهم الحاسمة بعد في عناصر ومميزات ادب هذه الحقبة في بولونيا ، والدراسات القائمة – رغم كثرتها – لم تتبلور بعد ، وفيها كثير من الآراء المتعددة والمتضاربة احيانا .

ولكي نلم بصفات ادب بولونيا الشعبية ونتعرف على جوانبه المتعددة يحسن بنا تقسيمه الى مراحل بارزة ، تميزت كل مرحلة عن سابقتها بصفات واضحة بعض الوضوح ، تبلورت نتيجة تبدلات داخلية وأخرى خارجية رغم قصر المدة الزمنية ، وهذه المراحل اربعة وهي :

الاولى من ١٩٤٥ – الى ١٩٤٩

الثانية من ١٩٤٩ – الى ١٩٥٦

الثالثة من ١٩٥٦ – الى ١٩٦٠

الرابعة من ١٩٦٠ حتى الآن

وتعتبر المرحلة الأولى أغنى هذه المراحل واكثرها خصباً وحيوية ، وبما انها جاءت بعد الحرب مباشرة فقد كان هم الأدب قبل كل شيء الرجوع بالذاكرة الى ايام الحرب والاحتلال واخذ الدروس والعبر من هذه الأيام الطويلة السوداء . ان كثيراً من الكتاب قد عاش هذه المأساة بنفسه ، فهو حين يكتب انما يسجل ماعاناه هو شخصياً ، لذا فالصورة التي قدمت للقارىء في هذه المرحلة عن الحرب وفظائعها هي اصدق صورة واقواها أثراً ، لأنها بعيدة كل البعد عن التعليق

الطويل والشرح الضافي الممل . وخير مثال على ذلك كتاب صوفيا ناو كوفسكا بعنوان « مادليوني – المداليه » عكست فيه المؤلفة مشاهداتها وذكرياتها المرة التي عاشتها في احد المعسكرات النازية ، باسلوب مجرد ، بصف الحقائق بدقة وأمانة ، وكان الكتاب كله روبرتاج صحفي متسلسل .

اما الصفة البارزة الثانية فهي السؤال الهام : كيف يكون وجه بولونيا الجديد ؟ فبعد الحرب العالمية الثانية قام في بولونيا نظام جديد هو الحكم الشعبي الاشتراكي ، فكيف يكون هذا في التطبيق وفي ممارسة الناس اليومية ، ثم كيف تم التغلب على الصعوبات التي واجهته في البدء ؟ وخير انعكاس لذلك نجده في رواية انجييفسكي المشهورة « رماد ورماس » والتي عرضت كفيلم ايضاً ، وموضوع الرواية هي السنوات الأولى للحكم الشعبي ؛ وهي تعكس جميع الصعوبات والتعقيدات التي لاقاها المجتمع البولوني انذاك .

اما المرحلة الثانية وتمتد مابين ٩٤٩ – ٩٥٦ ، فهي مع الأسف مرحلة عقيمة وبائسة في حياة بولونيا الاجتماعية ، سادفيها جو الجمود العقائدي ، وتقديس الفرد ، وسرى الجمود الى الأدب الذي سار على منهج فوقي ، فالأديب في كتاباته عليه أن يعكس سياسة مرسومة مرتبة ، وعليه ان يرفع شعارات هذه السياسة على صورة روايات وقصص وأشعار . من هنا جاء ماهو معروف في دنيا الأدب « بالقصة الانتاجية » . وكانت جميع هذه القصص متشابهة . فالأدوار توزع بين الأبطال بان يكون هناك ابطال ايجابيون وآخرون سلبيون ، ابطال سود وآخرون بيض ، وطبعاً ينتصر الأبيض على الأسود وتنقشع ظلمة الليل امام شمس الصباح . . هذا كله كان يحدث باسم الواقعية الاشتراكية ، واذا ما امعنا النظر

نجد ان هذا الأسلوب الجامد كان بالفعل بعيداً عن الواقع الذي يحياه الناس وعن تطلعاتهم المخلصة لبناء الاشتراكية والحفاظ عليها .

ولذا فالمرحلة الثالثة والتي بدأت ٩٥٦ — ٩٦٠ كانت و كأنها رداً طبيعياً على المرحلة العنيدة الجامدة السابقة ، فأخذت تبتعد عن الأدب المرسوم واخذت بعض الأقلام بشكل واسع تحاكي أدب الغرب (خاصة التيار الوجودي) وقامت بترجمة مايكتب هناك دون دونما تمحيص وترو في الاختيار، بل بالعكس نلاحظ الركض اللاهث لنقل كل مايأتي به الأقلام في العالم الغربي و كأن مايكتب هناك وحي يوحى وشعلة جديدة تضاء في دنيا الأدب . ان هذه المبالغة الزائدة في التقليد كانت ولا شك سلبية في نتائجها رغم ان التطلع الى كل مايكتب في العالم في الشرق وفي الغرب أمر محمود واقتباس السليم والمناسب شيء ايجابي مفروض ومفيد .

كما ظهرت في هذه الفترة معالجات جديدة عكسها الوضع السياسي الداخلي وتقييم سنوات الحرب على مختلف الجبهات ، فكان أن اعيد اعتبار عدد كبير من المواطنين الذي وقفوا ضد الاحتلال النازي ، ولم يكونوا بطبيعتهم ثوريين او يساريين مثل حركة الجيش الوطني ، وكان في السابق قد اسيء اليهم . هذه الأمور عالجها الأدب في هذه المرحلة بشتى الوجوه والألوان وعكسها كثيرون من الكتاب الكبار امثال يجيي بوترامنت J . Putrament (نائب رئيس اتحاد الكتاب البولوني ، وبريزا Breza وبراندس K . Brandys وماخايك Machejek رئيس تحرير «جيتشا ليتراتسكي - الحياة الأدبية » خير المجلات الأدبية في بولونيا والتي تصدر في كراكوف ، ثم ايفاشكيفتش (السابق الذكر) في روايته المشهورة « الشهرة والمجد » .

واخيراً فنحن مع المرحلة الرابعة التي تبدأ بسنة ١٩٦٠ ، فهذه المرحلة تتميز قبل كل شيء في الاتزان والتعقل والعمل على الاستفادة من جميع الخبرات السابقة ، أي كما يقول بعض النقاد « منهج الوصول الى الوسط الذهبي ».

في هذه الحقبة نرى أن كثيراً من الشعراء الشباب قد ظهروا على المسرح وأبرزهم الشاعر الغنائي هربرت Z. Herbert وظهرت ايضاً كتابات المسرحي مروجك خاصة في مسرحيته تانجو Tango .

هذا ومع النهوض العلمي والثقافي للبلد بكامله فقد ظهرت كثير من القصص ذات الطابع المحلي ، ففي المحافظات يقوم بذلك أدباء وكتاب يعيشون في هذه المحافظة او تلك . ومكانة خاصة تحتل في الأدب البولوني والدعاية البولونية كذلك قضية الحدود والأراضي الغربية والساحلية ،هذه الأراضي التي استردتها بولونيا من المانيا بعد الحرب العالمية الثانية ،ففي جميع الكتابات بهذا الصدد اشارات قوية تبرهن على الوجود البولوني وحتى السلافي في هذه المناطق منذ زمن بعيد سحيق ، وثمة تسجيل للعمل الكبير الذي انجز في هذه المناطق وفي مختلف الميادين في ظل الحكم الشعبي البولوني .

ومن الميزات البارزة في هذه الحقبة هي النهضة البارزة في « الأدب الفلاحي » فالقرية والفلاح اصبحا موضوعاً بارزاً في أدب بولونيا الآن .

وفي الختام انقل للقارىء قصيدة بعنوان « الجبال الذهبية » للشاعر ت. روجيفتش T. Rozewicz من ديوانه « القلق » ، وهذا الشاعر هو من المع الشعراء الاحياء واسلوبه بسيط وكأنه يقول كلاماً عادياً منثوراً وموزوناً ، وأما موضوع اشعاره فهو أخلاقي بناء ، فيه تشكك في ماهية المدنية المعاصرة ووسائل واسلوب الحياة

« المودرن » . اما مسرحياته التي تعرض في اكثر مسارح بولونيا وفي الخارج فهي مزودة بشحنات قوية من الدراما والتفاعل الداخلي ومن اعماله المسرحية « المسرحان » « وابنتي » .

الجبال الذهبية

للمرة الأولى
شاهدت الجبال
في السادسة والعشرين
من سني عمري
لم أضحك ولم أقهقه
ولم أصرخ
بل في حضرتها همساً تكلمت
وحين ضمني البيت ثانية
وددت أن أحدث أمي
عن منظر الجبال
هممت ، ولكن من الصعب الكلام
ففي الليل البهيم
تتباين ... تتبدل الأشياء
الجبال والكلمات
وأمي صامتة
لعلها غضبى
أو تعبة
وسط طيات الغمام
يبدو القمر
هذا الجبل الذهبي
ملك الفقراء من الناس

تفسير لرواية الحادي والأربعون (١)

يسرى الأيوبي

ماريوتكا طفلة يتيمة كانت منذ السابعة من عمرها تعمل في فتح بطون الأسماك. ولما نشبت الثورة انخرطت مع المتطوعين في الحرس الأحمر وكانت حينذاك شابة عنيدة جريئة تميل الى الأحلام ويستعصي عليها الشعر ، ولكنها بالمقابل أحكمت الرمي ببندقيتها بشكل غريب .

وفي جو يزأر بالعواصف الشتوية والرياح الوحشية وأزيز الرصاص تتبع ماريوتكا فصيلتها المكونة من ثلاثة وعشرين رجلاً عبر صحراء قرهقوم الرهيبة المغطاة بالجليد، فيقابلون قافلة من القرغيزعلى رأسها ملازم الحرس غوفوروخا او تروك فترميه ماريوتكا. وكان عليه أن يكون الحادي والأربعين في قائمة ماريوتكا للضباط البيض الذين رمتهم ببندقيتها وأصابتهم . ولكنها تخطئه. وتأسره فصيلتها ويسلم اليها أمر حراسته عبر الصحراء حتى بحر آرال وهناك يطلب اليها أن تستقل قارباً مع اثنين من الجنود الحمر لتسلمه للقيادة للتحقيق . وبسبب ظروف قاهرة شبيهة بقصة روبنسون كروزو يغرق القارب والجنديان ثم تجد نفسها وحيدة مع الملازم في جزيرة منعزلة خالية ليس فيها الا أكواخ الصيادين المملوءة بالأسماك المجففة يتهددهما خطر الموت من الصقيع والجوع والمرض .. تنقذ حياته من الموت حين تنشب الحمى فيه براثنها وينمو بينهما تعاطف يكاد يكون حباً ولكنها تقتله ، حين تأتي للجزيرة سفينة البيض ، تنفيذاً للأمر الذي كان قد أصدره اليها آمر فصيلتها ان لا تترك الأسير حياً اذا وقعت صدفة بأيدي البيض .

---

(١) بوريس لافرينيوف — الحادي والأربعون – ابناء العاصفة الثورية « مجموعة قصصية » – دار التقدم ، موسكو .

هذه القصة هي رمز للصراع بين الطبقة الجـديدة الثائرة التي تبرز الى الوجود بكل عنفوانها وفعاليتها والتي تمثلها ماريوتكا، وبين الطبقة السائدة التي تنهار والتي يمثلها الملازم اوتروك. ولقد جرد الكاتب الصراع بين الطبقتين ليبرز التناقض الأساسي الذي لا تزيله العواطف الطبيعية بين الناس ولا الخطر المحدق، حين عزل الفتاة والشاب في تلك الجزيرة ووضعهما في ظروف طبيعيـة لا ترحم. ومن الطبيعي ان تتنامى التناقضات الى حين حتى يبدو للملازم ان التعايش بينهما ممكن، بل مستحب فيعرض عليها الزواج الذي ترفضه لأنها تدرك بحدسها استحالة مثل هذا الأمر الذي يلغي ذاتها فتقذفه بالكلمات اللاذعة (١) : « هذا يعني انه يجب علي أن افهم كلماتك بهذا الشكل : أنام معك تحت لحاف واحد بينما يتقاتل الناس في سبيل الحقيقة، وتلتهم الحلوى وكل واحدة منها بللت بالدماء اليس كذلك ؟

ما شأن ماريوتكا الفارسة البلشفية التي تناضل من اجل حقيقة تشربت بالعرق المالح وبدموع الناس وتحرث الأرض للحياة الجديدة بشاب من العـالم القديم نخره السوس وتآكل، بشاب يرى فضائلهـا رذائل. ويرى بطولتها طريقاً يقودها الى منصب « رئيسة قطاع الطرق ». انهما عالمان لا يعيش منهما الواحد الا على انقاض الآخر، وقد تمر مرحلة يكونان فيها جنباً الى جنب ولكن العلاقة بين متناقضين، والانسجام بينهما وهم من الأوهام. لقد عاشت المسيحية في مرحلة مع الوثنية لا لتتآخى معها، بل لتصفيها اذ يشتد عودها. وكما يكون بين عقيدتين متباينتين، وكما يكون بين نظامين مختلفين، هكذا يكون بين فردين متقاربين لأن كلا منهما يحمل خصائص في شخصيته هي الغاء لشخصية الآخر.

لقد كان حتما على ماريوتكا ان تنهي الصراع في نفسها بقتل الضابط وتضع

---

(١) صفحة ٣٠٨

حداً نهائياً لهذا الحب الذي انشب مخالبه في قلبها . لقد كانت النهاية جد واقعية ، فعندما « تصطرع ثقافتان كما يقول الملازم - فلا بد من حل القضية حلا نهائياً» .

ورغم ذلك فان القارىء تجتاحه موجة عارمة من الأسى والحزن على الملازم كما حدث لماريوتكا ، والسبب في ذلك هو ما اثاره الكاتب من عطف عليه خلال القصة . وقد نسي انه في الحرب الطبقية لا يدفع هذا الفرد او ذاك الثمن غالياً لأنه يستحق ذلك ولكن لأنه قطرة من تيار تراكمت فيه إساءات الطبقة بكاملها . فالملازم كما نعلم من سياق القصة ومن حديثه مع ماريوتكا لا يحمل صفة العدوان الملازمة لطبقته ، فخلال خدمته العسكرية لم يمس جندياً بأذى ، ولقد انخرط في الخدمة لأنه يقع على كاهله عبء اسم وشرف العائلة الذي تعلم منذ نعومة اظافره ان يعتز بها .. لقد كان قلبه رقيقاً شاعرياً .. « ولكن الحرب قضت علي . لقد اغرقت قلبي الحي الانساني بيدي في هذه اللجة العفنة ، هذه القاذورة العالمية . »(١)

شاب يرى الوطن الانساني الحقيقي الوحيد هو الفكر وعالم الكتب ، فاقتلع من عالمه ليواجه حرباً ثم ثورة ، ثم يرى فراغ كلمتي الوطن والثورة ، فيتمنى العودة الى كتبه ليطلب الصفح منها ..

ان حماقة الملازم الكبرى انه يحمل عماء الطبقة الظالمة التي ينتمي اليها والتي تزعزع كيانها ، وعدم انتباهها للواقع .. ان أسره والخطر المحدق به ، لا يزال لا يثير عنده التفكير حتى بطريق الخلاص ، بل نراه يعيش اشبه بغيبوبة حالمة فتارة يقترح على ماريوتكا ان يعتزلا العالم ويعيشا الى الأبد في تلك الجزيرة ، وتارة

---

(١) ٢٠٥

تراه يريد ان يهرب الى دارته ويغرق في عالم الكتب .. انه يشعر بالضياع ، الذي يلازم حالة النزع عند الطبقة ، ويشعر ان كل شيء قد انتهى في العالم لأنه قد انتهى بالنسبة اليه .. أجل تنشق ، تنفجر الأرض الشامخة ! لقد اصبحت فارغة وممزقــة . وهي تهلك من جراء هذا الفراغ نفسه . كانت قبلا فتية ، خصبة ، بكراً ، تفتن بأصقاعها الجديدة وثرواتها التي لا تعد . انتهى كل شيء .. » (١)

نعم لقد انتهى كل شيء بالنسبة لملازم الحرس . فأي شيء يستطيع عطاءه لفارسة الحرس الأحمر ؟ أيريد أن يغريها بالعلم والدرس ؟ ولكن أي نفع للعلم والدرس بالنسبة اليها ان لم تكرس كفاءاتها لبناء العالم الجديد؟ وكيف تستطيع العيش مع رجل يريد ان يهرب الى الكتب ويبصق على البشرية بوطنها وثورتها وبؤرتها العفنة الشيطانية ؟

« يعني أن الارض تنشق عن نصفين ويغرق الناس في الدماء في طلب العدالة وانت تلتذ بقراءة الأقاصيص ؟ » (٢)

ان اقصى مايستطيع عطاءه لها هو الحياد وعالم الأحلام وهذا ما لايرضي قلب ماريوتكا التي خاضت الثورة وتعمدت بالدم .

يقول لها : « يدهشني ان فتاة مثلك اصبحت فظة جافية الى درجة انها ترغب في ان تنهب وتقتل مع شراذم السكارى المعربدين المقملين » . فتصيح به : « قد تكون ابدانهم قد نهشها القمل ، ولكن روحك كلها مقملة ! » (٣)

هذه الرؤيا للوضع من زاويتين مختلفتين توجز عمق التناقض الايديولوجي

---

(١) ٣٠٦ - ٣٠٧

(٢) ٣٠٦

(٣) ٣٠٩

بينها ، فالملازم اوتورك لا يرى من الثورة الا سلبيتها التي هي ليست في الواقع الا رواسب النظام القديم . يرى الثورة وهي تهدم ولا يرى فيها القوى النامية التي تحمل في اعماقها بذور عالم جديد مكتمل القدرة على النمو الباسق حتى ليصبح كل ما سبقه منازل اهـــالي ليليوت بالنسبة لعيني غوليفر العملاقتين اللتين ترى بهما ماريوتكا الأمور .

ويأسف الملازم للفوضى التي تطالعه في مرحلة الانتقال وهو يظنها من طبيعة تلك الثورة التي تهدم كل القيم الجميلة في رأيه ، فيقرران بعمل حتى لا تنتصر الفوضى على الاستقرار والبربرية على المدنية .

« لو اننا انكببنا على الكتب الآن وتركنا لكم الأرض ملكا حـــلالا لجعلتم منها مسرحاً للفوضى حتى ان خمسة أجيال تأتي بعدكم تبقى تعول وتذرف الدموع الدامية ! لا .. يا حمقاني العزيزة ! اذا كانت ثقافتان تصطرعان ، فلا بد من حل القضية حلا نهائياً .. » (١)

كان الملازم اوتورك يعتز بثقافته التي هي وليدة طبقته فلقد ترعرعها في ظلال استقرار الأمد واكتست برد الجمال كجمال عينيه الزرقاوين اللتين تشبهان مياه بحر آرال العميقة الزرقة واللتين فتنتا فارسة الحرس الأحمر .

والكاتب كما جعل بطلي القصة رمزاً للطبقتين المتصارعتين جعلهما ايضاً رمزاً للثقافتين المتبارزتين : فملازم الحرس يمتلك لقواعد الفن والأدب فاقد الروح والمضمون ، اما ماريوتكا فانها تكتب من قلبها وبساطة روحها شعراً ركيكا تقوله له ، حين يطلب اليها ان تسمعه شعرها .

---

(١) ٣١٢

«لن تفهم . ان دمك ارستقراطي لزج ! ان الشعر الذي تريده هو شعر الزهور والنساء . اما شعري كله فهو عن الناس الفقراء وعن الثورة . » (١)

ثم تقرأ ويكون رأيه أن أشعارها سيئة جداً وليس فيها صنعة ، وتنقصها البراعة ، وينصحها بالدراسة التي تنمي الموهبة لأن كل فن له قواعده وأصوله .

والواقع أن الطبقة المترفة قد اتيح لها أن تمتلك الثقافة والفن اللذين لاتملكها الطبقة المحرومة . وتبقى تلك القوة تحالفها حتى بعد هزيمتها العسكرية والسياسية ، ولهذا نجد الملازم اوتورك يدهش فصيلة الثوار بقوة احتماله وهم يقطعون مفازة الجليد فيقول له آمر الفصيل ايفسيو كوف .

« لا أدري ! هل لك حياتان ؟ تبدو نحيلا ولكنك تحتمل احتمال رجلين ! من أين لك هذه القوة ؟

فيجيبه بابتسامته الساخرة المألوفة .

« انك لن تفهم . انه الفرق بين الثقافتين . . الجسد عندك يسيطر على الروح ، بينما الروح عندي تهيمن على الجسد . استطيع أن آمر نفسي ألا أتألم » (٢) .

وتتساءل ماريوتكا في مكان آخر ، وهي فريسة الحزن لعجزها عن التعبير .

« كيف اصنع البراعة ؟ ماهي تلك الحيلة التي فيها ؟ » .

وحتى تستطيع القوى الثورية ان تصنع البراعة وتمتلك الكفايات الثقافية والعلمية والفنية التي تمتلكها الطبقات الاقطاعية وتحول مضمونها الرجعي الى مضمون تقدمي تحتاج الى الزمن الكافي بالرغم من غلبة البندقية .

---

(١) ٢٥٨

(٢) ٢٥٢ .

ان بناء القصة هو بناء سليم من الوجهة الثورية ،وحل العقدة هو حل سليم. لأن الملازم عندما اصبح « أعقل » ـ على حد تعبيره اختار طريقة الطبقي في عداء الثورة .ولم يكن الأمر الآن مفروضاً عليه ،بل بكامل ارادته ، فكان حتماً على ماريوتكا ان تقتله .

أما الشخصيات فيها فهي غالباً ألسنة لأفكار متباينة ،ولذلك تفقد العمق النفسي الذي يجعل منها حياة . .وهناك فجوة تركها الكاتب بعد النقاش غامضة. فنحن لانشعر بصراع في نفس ماريوتكا بين جهلها ومبدئها ،بل يكاد يفهم القارىء من تصرفها وقولها له مؤنبة بعد صفائها « لماذا تتذكر مابيننا من شجار ؟ يالك من شوكة ! ما كان قد مضى . شتمتك لأنك كنت تستحق ذلك ..[1] » أن الأمر كله هو مجادلة كلامية ، حرب باردة لا يستحق تلك النهاية ، ولذلك يصدم حسه الانساني حين يقتل الملازم في غمرة فرحه بنجاته ونجاة ماريوتكا، وذهنه أبعد مايكون عن ان تصوب فوهة بندقية في ظهره من فتاة انقذته من الموت وأحبها وغنى لها السعادة بمقاييسه هو . . فالظروف النفسية التي قتل فيها بعد أن كان يرقص طرباً مع ماريوتكا للنجاة ، بالرغم من أنه لايدري أجماعته هم القادمون أم جماعتها، تجعل قتلها اياه بعد ذلك بقليل أشبه بالغدر منه بالمجابهة الثورية الواعية في ميدان القتال ، ويكون الأثر النفسي هو عطف عليه يتعمق بحزنها الفاجع . وهذا يفقد القصة أثرها المطلوب .

ويبدو لي أن الكاتب في تلك الفترة التي تلت انتصار الثورة كان يميل الى ايجاد صلة بين الحاضر والماضي ،ولم يكن من انصار القطع البات بينهما . فحزن ماريوتكا الثاكل وندمها بعد قتل الملازم هو دليل على إنتصار العاطفة الانسانية

(١) ٣١١ .

بالرغم من كل شيء ، ودليل على ان الكاتب يميل الى ابراز اهمية الناحية القومية في ان الطبقتين هما من شعب واحد وتاريخ واحد، ورغبته في أن لاتقطع الثورة مابينها وبين ثقافة الماضي الجميلة المتمثلة في « عيني الزرقاوين العزيزتين » اللتين هما رمز لبحر آرال والشعب الذي يعيش على شواطئه . . ولو أن الكاتب توقف عند دوي الرصاصة لكان قد ترك الكلمة الأخيرة للثورة والعنف، وهو مالايريده لأن الثورة وسيلة وليست غاية .

إسهام في نقد الاقتصاد السياسي (١)

عرض وتقديم: هشام الدجاني

من الكتب الجيدة التي اصدرتها وزارة الثقافة في القطر السوري مؤخراً كتاب كارل ماركس الشهير: « اسهام في نقد الاقتصاد السياسي » الذي قام بترجمته الاستاذ انطون حمصي.

يضم هذا الكتاب الخطوط الفكرية الاولى التي بنى عليها ماركس اشتراكيته العلمية. ولقد كان نقد الاقتصاد السياسي أحد المشاغل الرئيسية التي سيطرت على كارل ماركس خلال معظم مراحل حياته. إذ تعود جذور هذا الكتاب الى مرحلة شباب المؤلف. واذا كان ماركس قد تصدى لميدان الاقتصاد السياسي في هذه المرحلة المبكرة فان إعداده العلمية واتصالاته بواضعي النظرية الاشتراكية، وارتياده لأندية العمال الثوريين سوف تؤدي به الى تحديد مواقفه الأساسية.

لقد سبقت هذا المؤلف الهام عدة مؤلفات وأبحاث هامة. فثمة الدروس المعروفة التي ألقاها ماركس عام ١٨٤٨ أمام رابطة العمال الألمان في بروكسل، تحت عنوان « العمل المأجور ورأس المال » التي حدد فيها الخطوط الكبرى لأم اكتشافاته وهو نظرية فضل القيمة. وهناك كتابه « الايديولوجية الألمانية » الذي صاغ فيه تصوره للمادية التاريخية، وكتابه الآخر « بؤس الفلسفة » الذي ينتقد فيه آراء برودون الاقتصادية. وهناك أخيراً: « المدخل الى نقد الاقتصاد السياسي » الذي وضعه المؤلف قبل ان يكتب « الاسهام ».

---

(١) Karl Marx - Contribution à la Critique de L' Economie Politique - Editions Sociales , Paris

كارل ماركس - اسهام في نقد الاقتصاد السياسي - ترجمة انطون حمصي، منشورات وزارة الثقافة - دمشق ١٩٧٠ -.

لقد بلغت الدراسات التي انصرف اليها ماركس اذن حداً من السعة يستطيع معه ان ينتقل الى كتابة نتائجها . فقد بدأ منذ عام ١٨٥٧ يضع مدخلاً لنقد الاقتصاد السياسي (وهذا المدخل نجده في نهاية الكتاب) الذي يؤلف ثمرة ابحاثه الشخصية ، والتي سيكون « رأس المال » تتويجاً لها . وأهمية هذا المدخل هي في انه يبين لنا ان ماركس قد سبق له أن صاغ نقداً على درجة كافية من النمو لعلم الاقتصاد السياسي البورجوازي للكشف عن عيوب منهجه .

واخيراً صدر كتاب « الإسهام في نقد الاقتصاد السياسي » في اوائل حزيران عام ١٨٥٩ ، بعد جهود متواصلة وبحث ودراسة عميقين . ولكن الكتاب لم يحدث الصدى الذي توقعه له ماركس . فقد جوبه بمؤامرة صمت منظمة . ولاشك ان الكتاب كان عسير القراءة الى حد ما . وهذا ما يعترف به كارل ماركس نفسه ، في رسالته الى كوغلمان في ٢٨ كانون الأول عام ١٨٦٢، إذ يقول :

« ... ان محاولات علمية لإحداث ثورة في علم ما لايمكن قط ان تكون شعبية حقاً . إلا أني كنت بالمقابل أتوقع من الاخصائيين الألمان الا يتجاهلوا عملي مثل هذا التجاهل ... » .

ومع هذا فإن الكتاب أهميته الأكيدة التي لايرقى اليها الشك . فهو أولاً وآخراً جزء لا يتجزأ من مؤلفات ماركس الاقتصادية . وهو يقدم لنا أكمل عرض لنظرية المال عند ماركس ، كما انه يعالج قضية التداول النقدي ونظرية النقد اللتين يعود ماركس لمعالجتها في القسم الثالث من مؤلفه الضخم « رأس المال » . ونحن لانستطيع أن نعتبر هذا الكتاب مجرد مقدمة او بداية لكتاب « رأس المال » ، بل ان له وجهه الأصيل الذي يجعله جزءاً متميزاً من مؤلفات ماركس الاقتصادية الأخرى . انه حلقة انتقال تربط بين مؤلفات

ماركس الأولى وبين مؤلفاته الاقتصادية التي لخص فيها نظرياته الفلسفية حول التاريخ والمجتمع من خلال التحليل الاقتصادي .

• • •

يتألف الكتاب من فصلين أساسيين . يتناول المؤلف في الأول منها موضوع السلعة ، ويتناول في الثاني موضوع النقد والتداول .

وثمة أخيراً « المدخل الى نقد الاقتصاد السياسي » وهو المدخل الذي أشرنا اليه في بداية هذا العرض .

السلعة :

لكل سلعة من السلع قيمتان : قيمة استعمال ، وقيمة تبادل . ولتوضيح الفرق بين القيمتين ، أو بين مفهوم القيمتين ، نسوق مثالاً بسيطاً . فربطة العنق مثلاً في عنق واضعها لها قيمة غير قيمتها لدى بائع ربطات العنق . فهي عند واضعها لها قيمة استعمال ، أما عند التاجر فهي ذات قيمة تبادل .

وكارل ماركس يفرق في بداية بحث السلعة بين العمل الذي يخلق شيئاً مفيداً (قيمة استعمال) ، والعمل الذي يخلق شكلا اجتماعياً محدداً من الثروة (قيمة تبادل) . ولكن مهما يكن الشكل الاجتماعي للثروة فإن قيم الاستعمال هي التي تؤلف دوماً محتوى هذه الثروة . وهذا المحتوى لايتأثر في البدء بهـذا الشكل الاجتماعي أو ذاك . ولتوضيح هذه الناحية نسوق المثال الذي ساقه المؤلف نفسه .. « فمذاق الحنطة لايدل على الذي زرعها سواء كان قناً روسياً أم فلاحاً مرابعاً فرنسياً أم رأسمالياً انكليزياً » . فالسلعة اذن لاتتصف بوصف سلعة الا إذا كان لها قيمة استعمال . وزمن العمل المتجسد مادياً في قيم استعمال السلع هو في الوقت نفسه الجوهر الذي يصنع منها قيم تبادل ، وهو المعيار الذي يستخدم

لتقدير قيمتها . ومن أجل قياس قيم السلع التبادلية بزمن العمل الذي تحتويه يجب أن ترتكز الأعمال ذاتها الى عمل موحد بسيط ، بمعنى أن ترتد الى عمـــل متماثل كيفاً ولا يتمايز الا كماً .

ومار كس يؤ كد دوماً هذه الحقيقة ، وهي أن زمن العمل هو الوجود الحي للعمل بصرف النظر عن شكله ومحتواه وفرديته . وسوف نجده يلح عليها دوماً في معظم أبحاثه الاقتصادية الاخرى المتصلة مباشرة بموضوع العمل . وهو يستشهد بالمثال الذي ساقه الاقتصادي الأمريكي ت . كوبر إذ قال : انزعوا من كسرة الخبز العمل الذي اقتضته .. عمل الخباز والطحان والمزارع .. الخ فما الذي يبقى منها ؟ ان الذي يبقى منها هو بضع حبات من العشب المجنون غير صالحة لأي استعمال انساني .

وتحديد قيمة التبادل بزمن العمل يفترض أن تتجسد كمية متساوية من العمل مادياً في سلعة معينة كطن من الحديد مثلاً . وهذا التحديد يفترض كذلك أن يكون زمن العمل الذي تحتويه سلعة ما هو زمن العمل الضروري لانتاجها . ومن أجل أن تكون نتيجة عمل الفرد قيمة تبادل يجب أن يؤدي هذا العمل الى معادل عام : فيجب أن يمثل زمن عمل الفرد زمناً عاماً للعمل أو أن يمثل زمن العمل العام أيضاً زمن عمل الفرد . فزمن عمل الفرد هو إذن زمن العمل الذي يحتاج اليه المجتمع ليروي حاجة معينة . فزمن العمل المحدد لعامل غزل يتجسد مادياً مثلاً في مائة ليبرة من خيطان الكتان .

يقودنا هذا الى الاستنتاج بأن قيمة التبادل هي العلاقة بين أعمال الأفراد بوصفها عملاً متعادلاً وعاماً . وبما أن هذه القيمة ليست سوى التعبير الموضوعي عن الشكل الاجتماعي للعمل ، فإن من قبيل تحصيل الحاصل القول إن العمل هو

المصدر الوحيد لقيمة التبادل وبالتالي للثروة ، على اعتبار أن هذه الأخيرة مؤلفة من قيم تبادلية .

واستكمال البحث يقتضي توضيح العلاقة بين قيمتي السلعة : القيمة الاستعمالية ، والقيمة التبادلية . فالسلعة هي في حد ذاتها قيمة استعمال : حنطة ، قماش .. الخ ، وهي في الوقت نفسه ، وبوصفها سلعة ، ليست قيمة استعمال بقدر ما هي ركيزة مادية لقيمة التبادل أو وسيلة تبادل . أي أن السلعة لاتصبح لها قيمة استعمال بالنسبة لصاحبها إلا بوصفها قيمة تبادل . فلو أصبحت السلعة ذات قيمة استعمال لمالكها فقط لفقدت صفة السلعة . فهي لاتأخذ صفة السلعة الا اذا كان لها قيمة تبادل ، وهي لاتصبح ذات قيمة تبادل الا اذا كانت ذات نفع للآخرين، أي ذات قيمة استعمال للآخرين وهكذا . فاذا لم تكن السلعة تستطيع أن تصبح قيمة استعمال الا بتحققها كقيمة تبادل ، فهي لاتستطيع من جهة أخرى أن تتحقق كقيمة تبادل الا بتوطدها كقيمة استعمال .

ان تبادل السلع ، وهو عملية التبادل الاجتماعي للمواد ، أي تبادل المنتجات الخاصة للأفراد ، هو في الوقت نفسه خلق لعلاقات انتاج اجتماعيـة تقوم بين الأفراد خلال هذا التبادل للمواد . وعلى هذا فإن عملية التبادل هي في نفس الوقت عملية تكوين النقد ، وهذا ما يقودنا الى بحث النقد والتداول النقدي .

ولكن قبـل أن ننتقل الى بحث النقد والتداول ، لابد أن نشير الى ما قدمه ماركس من عرض للنظرات التاريخية في تحليل السلعة . ففي هذا العرض يقدم لنا ماركس آراء الاقتصاديين الكلاسيكيين في عصره ، والذين سبقوه ، في السلعة وعناصرها ، وفي العمل (الجهد الانتاجي) بقيمته الاستعمالية والتبادلية . وهو ينتقد ، من خلال عرضه لنظرات هؤلاء الاقتصاديين ، بعض

المفاهيم البورجوازية أو المغلوطة التي جاؤوا بها ، ويصحح بدوره هذه المفاهيم على أساس التحليل المادي . وهو يتعرض بشكل خاص الى بواغيبر ، وستيوارت ، وريكاردو الذي صاغ قانون تحديد القيمة بزمن العمل ، ومنح الاقتصادالكلاسيكي شكله المكتمل .

ويحال ماركس واقع النظرة التاريخية الى العمل في أوروبا فيقول :

لقد استأثرت معارضة العمل المفيد الواقعي بالعمل الخالق لقيمة الانتاج بانتباه أوروبا خلال القرن الثامن عشر على شكل السؤال التالي : أي نوع خاص من العمل الواقعي هو مصدر الثروة البورجوازية ؟

ان السؤال الملح على كل حال لم يكن معرفة العمل الذي يخلق القيمة ، بل العمل الذي يخلق فضل القيمة

النقد والتداول البسيط :

قلنا ان عملية التبادل هي في الوقت نفسه عملية تكوين النقد ، أو عملية تداول . والفعل الضروري الأول لهذه العملية يقوم على وضع معيار موضوعي، خارج عن اطار السلع ، هو الذهب . فاذا كانت السلعة هي التجسيد المادي لزمن العمل ، فهي تجسيد مادي يقيّم بالذهب . أي أن الذهب يصبح مقياساً للقيم لأن كل السلع تقيس قيمها التبادلية بالذهب ضمن النسبة التي تحتوي بموجبها كمية محددة من السلع على المقدار ذاته من زمن العمل . ويصبح الذهب بالتالي ، بسبب هذه الوظيفة التي أعطيت له (معيار القيم) معادلا عاما أو نقداً . ولو كانت السلع تقيس قيمها بالفضة مثلا أو القمح أو النحاس ، لأصبحت هذه مقياساً للقيم وبالتالي معادلا عاما .

ونحن عندما نطرح السلع بوصفها مساوية للذهب فإنما نطرحها بوصفها مساوية بعضها لبعض . وقيمة تبادل السلع المعبر عنها بهذه الصورة هي السعر . والسعر هو الشكل المصعد الذي تظهر به قيمة التبادل السلع داخل عملية التداول .

والفرق بين قيمة التبادل والسعر يبدو اسمياً . فالعمل ، كما يقول آدم سميث ، هو السعر الواقعي للسلع ، والمال هو سعرها الاسمي . فبدلاً من أن نقدر قيمة ربعية من الحنطة بثلاثين يوم عمل ، نقدر قيمتها الآن بأونصة من الذهب مثلا . ولكن الذهب سلعة متميزة عن الحنطة والتداول وحده هو الذي يجعل بالامكان التحقق مما اذا كانت ربعية الحنطة تعادل فعلا أونصة الذهب .

ومنذ أن أصبح الذهب مقياساً للقيم وأصبحت قيمة التبادل سعراً ، فإن كل السلع لاتعود في أسعارها سوى كميات مجازية من الذهب ذات مقادير مختلفة . ومن خلال سلسلة الأفاعيل التي تؤدي بنا الى هذه النتائج يوضح لنا ماركس تحول دور الذهب واكتسابه لدور جديد فيقول : وبما ان السلع لم تعد تنسب بعضها الى بعض كقيم تبادل يجب قياسها بزمن العمل ، وانما كمقادير تحمل ذات الاسم تقاس بالذهب ، لذلك فان الذهب يتحول من مقياس للقيم الى معيار للأسعار .

وبذا يصبح للذهب ، بوصفه مقياساً للقيم ومعياراً للأسعار ، تحديدان شكليان مختلفان تمام الاختلاف . فالذهب يكون مقياساً للقيم من حيث هو زمن عمل متجسد مادياً ، ويكون معياراً للأسعار من حيث هو وزن محدد من المعدن . وهو مقياس للقيم لأن قيمته متحولة ، وهو معيار للاسعار لأنه ثبت كوحدة وزن ثابتة .

بعد هذه التحديدات الواضحة ينتقل ماركس الى نقد النظريات المختلفة حول وحدة قياس النقد . فيتعرض أول مايتعرض الى أصحاب مذهب القياس النقدي المثالي ، وعلى رأسهم جيمس ستيوارت وبركلي . كما يتعرض لجون غراي الذي عرض نظرية زمن العمل المتخذ وحدة قياس مباشر للنقد . وكذلك لايفوته أن يعرض برودون ومدرسته التبشيرية .

ولايسعنا في هذه العجالة أن نعرض آراء هؤلاء الاقتصاديين ، ورد كارل ماركس عليهم . وكل مايمكن أن نشير اليه هو الدقة الموضوعية الصارمة التي تحلى بها ماركس في نقده لمختلف الآراء الاقتصادية حول وحدة النقد القياسية ، وتثبيت الصحيح من هذه الآراء ونفي المغلوط منها .

بعد أن أسهب ماركس في بحث مقياس القيم والنقد ينتقل الى بحث وسيلة التداول . ولا بد أن نقف قليلاً عند هذا البحث . إذ يتوقف على فهم معطياته ، والأسس الأولية التي يتضمنها فهم الأبحاث التالية في هذا الفصل وخاصة بحث النقد ، والنقد العالمي ، والنظريات الموضوعة حول وسائل التداول والنقد .

يتم التبادل الواقعي ، أي تبادل المواد ، بتصعيد تنتشر فيه الطبيعة المزدوجة للسلعة كقيمة استعمال وقيمة تبادل (وهو ماسبق الإشارة اليه بتفصيل) . وعندما نبحث في هذا « التصعيد » فإننا نبحث في عملية التداول نفسها . وكارل ماركس يشرح عملية تصعيد السلع – أو التداول – بصورة مفصلة غاية في التفصيل . ولا بأس هنا أن نسوق بعض ماشرحه ماركس .

إذا نظرنا الى عملية التداول عن كثب رأينا أنها تعرض دارتين بشكلين

مختلفين . فاذا أشرنا الى السلعة بالحرف (س) والى المال بالحرف (م) إستطعنا أن نعبر عن هذين الشكلين كما يلي :

س ـ م ـ س

م ـ س ـ م

والشكل الأول هو الشكل المباشر لتداول السلع . وهذا الشكل يحلل كما يلي :

الحركة س ـ م معناها مبادلة السلعة بالمال ، أو البيع . والحركة الثانية م ـ س تعني مبادلة المال بالسلعة ، أو الشراء . وتشكل وحدة الحركتين معاً الحركة : س ـ م ـ س ، أي مبادلة السلعة بالمال من أجل مبادلة المال بالسلعة ، أو بيع من أجل الشراء .

فمجموع التداول س ـ م ـ س هو إذن الحلقة الكاملة للتصعيدين اللذين تجتازهما كل سلعة . ويتم التصعيد الأول في النصف الأول من التداول س ـ م ويتم الثاني في النصف الثاني من التداول م ـ س ، ومجموع التداول س ـ م ـ س ليس إلا سيرة حياة السلعة . والتصعيد الأول س ـ م هو عملية البيع ، والتصعيد الثاني م ـ س هو عملية الشراء . وهذه العملية هي عملية معاكسة تماماً للعملية الأولى . واذا كانت المبادرة تنطلق في العملية الأولى (س ـ م) من طرف السلعة الأقصى ، أي من جانب البائع ، فإن المبادرة تنطلق في العملية الثانية (م ـ س) من طرف السلعة الآخر ، أي من جانب المشتري . وهكذا تظل تسير في حلقة مفرغة ، وهذه الحلقة المفرغة هي التداول نفسه .

واذا كان المال هو العنصر الوسيط في هذه العملية كلها (س ـ م ـ س)

فقد أصبح إذن وسيلة لتبادل السلع . وبالتالي أصبح وسيلة عملية التداول. فعملية تداول السلع بشكلها البسيط (س ـ م ـ س) تتم بانتقال المال من يد الشاري الى يد البائع الذي أصبح شارياً ؛ الى يد بائع جـــديد ، وهكذا . إن التجدد المستمر لتداول السلع ينعكس في حركة المال الذي لايكتفي بالانتقال المستمر من يد الى أخرى على كل امتداد المجتمع البورجوازي ، بل يرسم في الوقت نفسه سلسلة كاملة من الدارات الصغيرة التي تنطلق من عدد لا متناه من النقاط ، وتعود الى نفس هذه النقاط لتعاود الحركة نفسها. وهكذا يبدو أن المال هو نقطة انطلاق الحركة بكاملها ، رغم ان السلعة هي التي تجتذب في البيع المال خارج مكمنه ، وتلقي به في حركة التداول بنفس القوة التي يلقي المال بها ذاتها في التداول في عملية الشراء . فحركة عملية تداول السلع تتجلى اذن في حركة المال بوصفه وسيلة تداول تتجلى في تداول النقد .

ولا بد ان نفرق هنا بين قيمة استعمال السلعة ، وقيمة استعمال المال . فقيمة استعمال السلعة تبدأ بخروجها من التداول ، في حين ان قيمة استعمال المال كوسيلة تداول هي تداوله نفسه . وبحث التداول يقودنا بالتالي الى وسيلة التداول ، وهو النقد المتداول . لقد عرفنا أن الذهب يقوم بوظيفة النقد المتـداول . وهو يعمل كصورة للذهب ، اي يعمل بظله ، على الرغم من وجوده . وهذا ما أدى بالتالي الى امكان استبداله ، في وظيفة التداول فقط ، بعلامات تحل محله وتعمل باسمه . وهذه العلامات ، ولنسمها علامات القيمة ، كالاوراق النقدية مثلا ، التي تقوم بوظيفة النقد هي علامة على كمية الذهب المعبر عنها في اسمها النقدي ، اي انها علامة ذهبية . ولا تعبر العلامة عن علاقة قيمة اكثر مما تعبر عنها في ذاتها كمية من الذهب تحل هذه العلامة محلها . وقوة العادة هي التي تؤدي في البدء الى أن تصبح علامة ما علامة للمادة النقدية . ولا يتوطد هـــذا الوضع الا لأن وجوده

مقبول من جانب مالكي السلع ، أي أنه اكتسب وجوداً اصطلاحياً، وبالتالي اكتسب تداولاً قسرياً. وورقة الدولة النقدية ذات التداول القسري هي الشكل التام لعلاقة القيمة هذه. ولا تختلف الورقة النقدية الرمزية مطلقاً عن النقد المعدني البديل (ذهب ، فضة نحاس .. الخ) ولكنها تعمل في حلقة تداول اوسع .

ان اصل الوجود النقدي للذهب كعلامة قيمة منفصلة عن مادة الذهب ذاتها يعود الى عملية التداول ذاتها .

ولا بد هنا من أن نوضح الفرق بين الذهب كوسيلة للتداول ، وبين العلامة التي تحمل اسم الذهب ، اي بين الذهب وظله .

ان كل قوانين التداول النقدي الواقعي تبدو في عملية تداول علامات القيمة (الاوراق النقدية) مقلوبة . ففي حين يجري تداول الذهب لأن له قيمة فان للورقة النقدية قيمة لأنه يجري تداولها . وفي حين تتوقف كمية الذهب المتداولة على قيمة الذهب الخاصة ، فان قيمة الورقة النقدية تتوقف على الكمية المتداولة من الأوراق . وفي حين لا يستطيع تداول السلع أن يمتص سوى كمية محدودة من النقد الذهبي ، فانه يبدو أن النسبة التى تدخل ضمنها الورقة النقدية في التداول يمكن أن تزداد بصورة تعسفية .

• • •

أشرنا في بداية هذا العرض الى « المدخل الى نقد الاقتصاد السياسي » الذي وضع في آخر هذا الكتاب ، وكان حقه التصدير . وهذا المدخل يتعرض الى كثير من الأبحاث الاقتصادية بايجاز كالانتاج ، والعلاقة العامة بين الانتاج والتوزيع ، ومنهج الاقتصاد السياسي . والذي يعنينا هنا هو منهج الاقتصاد

السياسي . فالأبحاث الأخرى التي تناولها المؤلف في «المدخل» عاد فبحثها بصورة منفصلة في « رأس المال » .

يقول ماركس : يبدو أن المنهج السليم هو البدء بالواقعي المشخص .. أي البدء في الاقتصاد السياسي بالسكان الذين هم الاساس في الفعل الاجتماعي للانتاج بأمره . لكن عنصر السكان تجريد اذا اهملنا الطبقات .. وهذه الطبقات كلمة جوفاء اذا جهلنا العناصر التي تستند اليها كالعمل المأجور ورأس المال .. الخ .

ونحن ننتقل من المشخص الى تجريدات متزايدة الدقـة حتى نصل الى بسط التحديدات (التحليل) . ثم نسير في الطريق بطريقة معكوسة حتى نصل اخيراً الى السكان (التركيب) . ويصف ماركس هذا المنهج القائم على التحليل والتركيب بأنه المنهج العلمي الصحيح . وهذا هو بايجاز منهج كارل ماركس في الاقتصاد السياسي .

دراسات عسكرية اقتصادية سياسية (١)

عرض وتلخيص المقدم

محمد منذر لطيفي

في مقدمة الكتاب المكثفة التي لم تتجاوز الصفحة الواحدة القى لنا المؤلف بعض الأضواء على الظروف التي رافقت ميلاد الكتاب وطباعته ، هذا الكتاب الذي يتألف من ثلاثة أبواب في الدراسات العسكرية والاقتصادية والسياسية ، التي كتبت او ترجمت في اوقات ومناسبات شتى ، وبعد هذه المقدمة الصغيرة ينتقل بنا الكتاب الى حديث للرسول (ص) مبيناً فيه فضل العلم وتعليمه .

---

(١) اللواء مصطفى طلاس – منشورات إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي . دمشق ١٩٧٠ .

١ ــ الباب الاول : الدراسات العسكرية :

الفصل الأول من هذا البـاب مقال للمعلق الأمريكي « روبوت كليان » عن القوة الافرنسية الضـاربة وقيمتها الفعلية ، وكيف سار كل من الجنرالين « ديغول » و « بيبرغالوا » قدماً في انشاء هذه القوة، بدءاً من صنع القاذفات النووية الاستراتيجية من طراز « ميراج ـ ٤ » ، وانتهاء بصنع الصواريخ « جو ـ أرض » البعيدة المدى ، وتطوير القنابل النووية بشكل يمكن معه الحصول في هذا العام على قوة نووية (وان كانت من الدرجة الثانية) .

ويحمل الفصل الثاني عنوان « الى أين تسير الحرب في الفيتنام » وهو مقال ترجمه اللواء طلاس عن المجلة العسكرية العـامة خلف شمال الاطلسي .
والحقيقة أن خير نهاية للمطاف بالنسبة لهذه الحرب ماورد على لسـان الجنرال « تايلور » في ٢٥ /٢/١٩٦٧ في سايغون عندمـا أرسلته امريكا الى الفيتنام ، هناك حيث قال :

« إن هذه الحرب ككل الحروب ستنتهي بمفاوضات ونوع من المعاهدات ، وذلك بالعودة الى معاهدة (جنيف) أو بعقد معاهدة مستقلة . »

الفصل الثالث « مقومات النصر » مقال للميجر جنرال « جون فردريك تشالس فولر » توج به كتابه « الحرب الميكانيكية » . و « فولر » هذا قائد انكليزي له مكانة مرموقة في تاريخ الفن العسكري ، وعوامل النصـر عنده خمسون ، اثبتها اللواء طلاس واحداً بعد آخر لأهميتها بالنسبة لكل العسكريين العرب الذين يتطلعون الى تحرير الأرض المحتلة .

الفصل الرابع « حرب العصابات في كوبا » ترجمة اللواء طلاس عن مجلة الجيش الفرنسي . في هذا الفصل يطلعنا الكاتب على الثورة الكوبية التي قادها كل من « كاسترو و غيفارا » ضد حكم الرئيس باتيستا ، والتي انتهت بنجاح تام ، وكيف ان هذه التجربة في حرب العصابات أعطت قادتها الكثير من الدروس العملية التي يمكن الاستفادة منها في حروب مقبلة من هذا النوع ، وخاصة مواضيع « الأرض ، طرح القضية أمام الشعب . وجود مناخ ملائم لحرب العصابات ، التكتيك الذي يعتمد استراتيجية الوخز بالدبابيس أي الضرب والهرب وإعادة ذلك مراراً دون أن يتاح للخصم فرصة الراحة ، التخريب ، التي تعتبر أهم العوامل لتحقيق النجاح » في مثل هذا النوع من الحروب .

الفصل الخامس « الجنرالات . . هل تجاوزهم الزمن » بقلم العقيد الاميركي « روبرت ريج » ، وقد ترجمه اللواء طلاس عن مجلة حلف شمال الاطلسي ، ويستعرض الكاتب في هذا المقال جنرالات الأمس وجنرالات اليوم ، وكيف أن « الجنرالية » التقليدية تمر الآن في مرحلة التحويل والتغيير نتيجة المؤثرات العصرية الحالية . ولعل أهم عنصر تحويل طرأ عليها هو الانتقال من القيادة العامة إلى القيادة الخاصة وخاصة منذ الحرب العالمية الثانية .

أما الفصل السادس فهو « الاستراتيجية وخصائصها الحالية » بقلم الجنرال « فالتنان » ، وقد ترجمه اللواء طلاس عن المجلة العسكرية العامة لحلف شمال الاطلسي . في هذا المقال يقدم لنا الكاتب بعض التعاريف الاستراتيجية لعل أدقها تعريف الجنرال « بوفر » قائد حملة السويس إبان العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، والذي يعرف به الاستراتيجية بأنها « فن تنسيق القوة لتسهم في تحقيق الأهداف السياسية » .

الفصل السابع عبارة عن محاضرة للواء طلاس بعنوان « الحرب العالمية المقبلة وخصائصها العسكرية الاستراتيجية في ظروف استخدام الطرفين المتصارعين لأسلحة التدمير الشاملة ». وفيها يحدثنا عن احتمال حدوث حرب نووية خلافاً لما ذهب اليه «ريمون آرون» في مقدمته لكتاب « استراتيجية العصر النووي » للجنرال « بيير غالوا »، معللاً ذلك ببعض الأسباب، لعل أهمها في نظره مجموعة العوامل التي لها أثرها البين في هذا المجال والتي تأتي في طليعتها وسائط الصراع المسلح الحديث المتوفرة بكثرة لدى الأطراف المعنية والتي تضم « الأسلحة النووية »، والكيماوية، والجرثومية، والصواريخ، والطيران بأنواعه، والمدفعية والدبابات، ووسائط الدفاع الجوي بأنواعه، والأسلحة الخفيفة، هذا بالاضافة الى الأسباب الطبيعية والاقتصادية والنفسية والمعاشية الاخرى.

في الفصل الثامن الذي يحمل عنوان «استراتيجية الهجوم غير المباشر»، يحدثنا اللواء طلاس عن تاريخ هذا النوع من الاستراتيجية وتعريفها الذي يقول « بعدم أخذ الثور من قرنيه »، ثم يحللها من خلال الموضوعات التالية: أمثلة من التاريخ، مفهوم المناورة غير المباشرة، مفهوم المناورة الداخلية، المناورة بالإعياء، مناورة الخرشوفة، أساليب مجابهة الاستراتيجية غير المباشرة.

في الفصل التاسع الذي يحمل عنوان «الاستراتيجية العسكرية ومشكلاتها»، يعود اللواء الطلاس لتسليط الأضواء على الاستراتيجية من جديد، ليحدثنا عن الاستراتيجية وكيف تحولت الى علم عسكري أصيل يحتل مكانة مرموقة ومكانا مستقلا – لدرجة ما – بين العلوم العسكرية الأخرى، ثم يطرح لنا المسائل المتعلقة بنظرية الاستراتيجية العسكرية كعلم، فيورد لنا بعضاً من وجهات نظر المفكرين العسكريين في الدول الغربية حول تحديد مفهوم الاستراتيجية ومضمونها،

ثم بعضاً من وجهات نظر المفكرين العسكريين السوفييت في هذا الصدد، ويحدثنا عن نشوئها وتطورها عبر التاريخ ومضمونها كعلم، والأجزاء المكونة منها، وعن أسس الاستقراء العلمي فيها .

٢ ـــ الباب الثاني : الدراسات الاقتصادية :

في الفصل الأول « أضواء على بناء الاشتراكية في الصين »، يلخص اللواء طلاس بعض الأفكار الهامة التي وردت في الكتاب الذي نشره الاقتصادي المعروف الأستاذ « شارل بتلهايم »، واشترك في تاليفه كل من « جاك شاربير » و« هيلين مار كيزيو » . والكتاب في مجموعه يعرفنا ببعض الأبجديات والمسائل الهامة فيما يتعلق ببناء الاشتراكية في الصين .

في الفصل الثاني « تطور الاتحاد السوفياتي الاقتصادي في المرحلة الراهنة »، يحدثنا اللواء طلاس عن برامج الاقتصاد الوطني البعيدة المدى التي تعبر عن مزايا النظام الاشتراكي، وكيف كان لها الدور التنظيمي الأول في تطوير الاقتصاد في الاتحاد السوفياتي، سواء البرامج الخماسية أو السباعية وخاصة الأخيرة منها، والتي أدى تنفيذها إلى نجاحات هائلة في تطوير الاقتصاد الوطني الذي أصبح متعدد الفروع ومتنوعها، كما ازداد نتيجة لذلك تسارع التقدم العلمي واستخدمت أحدث منجزات العلم، وهذا ماعزز مواقع الاتحاد السوفياتي ومكانة الدولة .

في الفصل الثالث « قضايا التنمية والتخطيط في البلدان النامية »، يلخص اللواء طلاس أهم الآراء التي طرحها الأستاذ « شارل بتلهايم » أستاذ الاقتصاد والتخطيط في جامعة السوربون ومستشار التخطيط في الهند وكوبا وغينيا ومالي، خلال الندوة التي أقامها في مقر الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي العربي في القاهرة،

والتي ناقش فيها بعض قضايا التنمية والتخطيط في البلدان النامية ، فأغنى بتجربته تلك التجربة الاشتراكية الى أبعد الحدود .

٣ ــ الباب الثالث : الدراسات السياسية :

يحمل الفصل الأول من هذا الباب عنوان « الكفاح المسلح .. الأسلوب الوحيد لمواجهة المخططات الاستعمارية الصهيونية على الوطن العربي » توّجه اللواء طلاس بحكمة رائعة قالها الفيلسوف الصيني « سان تسو » ـ منذ حوالي ١٥٠٠ عام خلت ـ هذا نصها :

« إذا عرفت العدو وعرفت نفسك فليس هذا مايدعو لأن تخاف نتائج المعركة ، وإذا عرفت نفسك ولم تعرف العدو فانك تلاقي هزيمة مقابل كل انتصار ، وإذا لم تعرف نفسك ولم تعرف العدو فانك أحمق وستواجه الهزيمة في كل معركة » .

ثم يبدأ الكاتب بعد ذلك بشرح وافٍ لإسرائيل ووجودها الاستعماري وارتباطها العضوي المصيري بكل من أمريكا وانكلترا ، ويعرج في طريقه على نكسة الخامس من حزيران ليذكر لنا سبع بديهيات أو مسلمات يعتبرها منطلقاً رئيسياً يجب الايمان بها قبل البحث في الاسلوب الذي يجب أن يتبعه العرب لتحرير الأرض المحتلة وطرد الغزاة الصهاينة ، وبعد ذلك يلقي الكثير من الأضواء على الدروب الواجب علينا سلوكها لنتمكن من تجاوز النكسة وتحرير الأرض المحتلة .

أما الفصل الثاني « الجرائم الأمريكية في الفيتنام » ، فهو مقال ترجمه اللواء طلاس عن إحدى النشرات الصادرة عن جبهة تحرير جنوبي الفيتنام وهو يفضح تجربة (القنابل التي تقذف الشفرات) في الشعب الفيتنامي

الفصل الثالث « رسالة الى القوات المسلحة بمناسبة الذكرى الخامسة للثورة » . يضع فيها ، اللواء طلاس ، النقاط على الحروف ، ويبين الأسباب

الاستعمارية الحقيقية لحرب حزيران ، هذه الحرب التي خطط لها كل من الاستعماريين الأمريكي والبريطاني حينما شعرا بتهديد مباشر لمصالحهما في المنطقة ، ثم يطلب بعد ذلك من الجميع الايمان بالمعطيات الايجابية التي تؤكد وتحتم انتصار الشعب العربي في النهاية على جميع القوى المتآمرة ، ضارباً لهم الأمثال ببعض الحقائق التاريخية الناصعة على انحسار المد الليلي وهزائم الغزاة في النهاية عبر التاريخ « المغول ، الصليبيين ، الأتراك ، النازية ، الاستعمار الغربي الانكليزي والفرنسي والايطالي » . ثم يذكر اللواء طلاس بعض الأمور الرئيسية التي يجب تبنيها في مواجهة المحنة الحالية .

نهار خليلي (١)

عرض ونقد

أسامة دعبول

قسم المؤلف « مسرحه » الى قسمين ، القسم الأيمن ، يدور حدثه في غرفة البرجوازي ، التي يلفها الظلام بسبب تجربة لغارة ليلية في أحد أيام أيار ١٩٦٧ . في هذه الغرفة ، البرجوازي البليد مع صديقه الكاتب يجمعهما المجلس ، ويفرقهما الفكر ، وكلاهما يتفقان في السخط على نفسيهما ، فالبرجوازي يخاطب صديقه الكاتب : « كان يجب أن تقرر حقيقة ثابتة . أنا غبي لأنني أرى أشياء كثيرة أمام عيني هاتين . . هاتين العينين القذرتين ، وأمضيهما والنار . . النار تشتعل في دمي » ، المسكين يرفض الاقتناع – مكابرة – بأن الحرب واقعة لامحالة. زوجه تخونه ولا يجرؤ على التصدي لها ، لأنها ستطالبه بخمسين ألف ليرة ، ولأنه يعلم أنها تعرف « مشاكله » مع بنات الليل ، ولا يجد متنفساً لهذه الحالة النفسية المضنية ، سوى قذف صاحبه الكاتب بالشتائم ، فهو (أناني ، مجنون ، قذر ، ملعون) . وتصيب « سوسي » – بنت الليل ، التي استدعاها البرجوازي للسهر معه – بعض من شظايا السباب فهي (ملعونة ، شيطانة ...)

---

(١) نواف أبو الهيجاء ، نهار خليلي ، مسرحية ، منشورات المسرح العربي الفلسطيني . دمشق ١٩٧٠ .

ولنترك فرصة للكاتب ليصف نفسه بقوله : « أنا .. جبان .. قذر .. أهرب إلى الورق والقلم .. أغرق إلى أذنيّ في الحبر .. » ، ولكنه إنسان يملك الإرادة والتمرد ، إنه لايخشى تهديدات البرجوازي بالقتل والطرد من بيته ، إنه يصب جام غضبه عليه « حتى أنت أيها البرجوازي الكبير . إنني أكره أن أسير خلفك ، أقولها بصراحة أمامك » . ورهافة حسه غريبة ، وهلامية شعوره لانظير لها ، إن صور العنت والعسف اللذين يكابد منها الشعب العربي في الأرض المحتلة، تأسر جوارحه ، وطريقة تبيانه تحزّ الأفئدة وتدمي المقل ، ولكنه مصاب بالتمزق الداخلي ، فالبون شاسع بين فكره وسلوكه . ولكن ألن يتمخض هذا عن شيء ؟

في القسم الأيسر : الحوادث تدور في مدينة الخليل المحتلة ، في أحد أيام أيار ١٩٦٨ ، أبوفارس وأم فارس ينتظران قدوم (فارس) من الشام ، وهذا الأخير « شاب يفهم أمور الدنيا بطريقة غريبة » ، لاتهمه « سلامته » الشخصية، لأنه يرى « الشهادة .. والوطن .. في ميزان واحد » . وهنا ينشأ جزع أمه — أم فارس — عليه . أما أبوفارس ، فله تجارب خصبة في النضال، فكان يرى « أن السجن للرجال ، والموت للرجال ، والأعمار بيد الله » . ويطرق الباب ، انهم الصهاينة ! لقد قبضوا على سليم ابن (أبي فارس) ، وجاؤوا يفتشون بيته ويعتقلون والده ، ولم يبق لأم فارس من يواسيها في مصابها الأليم ويكسر طوق عزلتها سوى قريبها يعقوب « شاب حائر ، غريب الأطوار » ، لايثق بنتائج عمليات المقاومة في إزالة الاحتلال البغيض عن الوطن ، ولا بما يفعله الحكام العرب من أجل القضية .

وأخيراً يأتي فارس من الشام ، بإجازة الفلسفة ليتحدث إلى يعقوب عن

(الذكاء ، والعاطفة الموجاء ، ورد الفعل ..) وأثر ذلك كله في الثورة ، فيجيبه يعقوب : « كلام فارغ » . إنه « لم يعد يثق بشيء في هذه الدنيا » . لعل صورة الموقف – لديه – ناقصة أو مشوهة . ولكن الاهتمام بما يجري في وطنه يدفعه للسؤال : « ما العمل ؟ » . وكان لا بد من « التنظيم » الذي « له فكره » وأهدافه وأساليبه » ، الفكر الذي ينبع من حقيقة أساسية هي أننا نحارب الاستعمار والاستغلال بجميع صورهما وأشكالهما » . إذن الثورية الجذرية طريق الخلاص . ولكن .. ما الذي سيفعله يعقوب وفارس على الخارطة الطبيعية ؟ المسرحية ستضع النقاط على الحروف .

وفي الفصل الثالث ، من المسرحية ، يحاول الصهاينة جر سليم وأبيه إلى مواقعهم ، ولكن ، هل سيصمدان أمام المغريات . « النقيب الصهيوني يجلس على مقعد مجاور لمقعد سليم » : سأتغاضى عن إجابتك اللاإبالية ، انك شاب صغير السن ، والمستقبل أمامك » . سليم سيختار طريقاً من إحدى طريقين هما أمام كل عربي . ولكن ما المستقبل ؟ نواف أبو الهيجاء يظهر الإنسان العربي بقيمه وطبيعة تكوينه النفسي من خلال ما يختاره سليم وأبوه .

مسرح (نواف أبو الهيجاء) طريف ، فهو مقسوم إلى قسمين ، ولعل ذلك مرده إلى جوانب الصراع المتعددة ، التي يحاول المؤلف كشفها وتسليط الأضواء عليها . يجمد نواف قسماً من المسرح عند المفاجأة ، ليشد عيني المشاهد إلى القسم الثاني من الخشبة . ولعل ذلك محاولة للخروج بالمسرحيات التقليدية بما تواضعت عليه من طرق العرض المكرورة والشائعة التي يملها المشاهد ويضجر منها . والصراع المسرحي يبرز فجأة في نهاية المشهد ، وآخر يظهر مرهصاً من

خلال تساوق أحداث المسرحية . وصور الصراع ، هنا ، شديدة الاستهواء للذوق وعميقة الأثر في النفس .

وإذا كانت مهمة المخرج نقل المسرحية من صفحات الكتاب ، الى خشبة المسرح - وهذا في الأحوال العادية أمر شاق ، يتطلب جهداً كبيراً ، فالمؤلف حدد المواقف المادية للمسرحية ، إذ أنها تدور في ثلاثة أماكن ثابتة ، وصف ما فيها بكل دقة ، ثم حـــدد الأدوار للممثلين ، بتفصيلاتها ، تارة يرسم صور الأداء ، وأخرى نبرات الصوت ، وثالثة قسمات الوجوه ، وكأنما قصد الهيمنة على المخرج ، ولعله محق في ذلك فالطبيعة الفنية للمسرحية جديدة . على أية حال هذه المسرحية تجربة للمخرج والمشاهد والقارىء والممثل وحتى المؤلف . ترى هل تنجح ؟ هل تحقق الغرض التي يسري في أعطافها ؟ إن المسرح العربي الفلسطيني الذي بدأ خطواته العملية مع انطلاقة الشرارة الأولى للثورة الفلسطينية ، يقدم للقراء العرب وللجمهور العربي مسرحية (نهار خليلي) للكاتب الفلسطيني نواف أبو الهيجاء كمحاولة للرد على هذه الأسئلة .

* * *